رسائل محرمة

سما هاني ، محمود جمال :رسائل محرمة ،رواية

تنسيق و تصميم داخلي: مؤسسة تكوين

تكوين
Takwin

تصميم الغلاف: ضياء إبراهيم

تصحيح لغوي: ريهام الغنام

رقم الإيداع : ٢٠٢١ /٢٤٥٩

الترقيم الدولي: 978-977-8-441-95-6

جميع الحقوق محفوظة ©

دار إبهار للنشر و التوزيع

إبهار
للنشر و التوزيع

رواية

رسائل محرمة

محمود جمال – سما هاني

إهداء

إلى مَن جعلوني أحيا، وقدموا لي الكثير والكثير من الحُب والعون لأنثر كلماتي، فتدب في حيوات أخرى أسطرها إليكم بقلمي.

إلى عائلتي أهدي هذه الرواية.

إلى الداعمين الصادقين.. إلى الأصدقاء.

سما هاني

مُهداه لروح صديق عمري أحمد رأفت.
أرجو الدعاء له.

محمود جمال

الإرادة القوية تُقصر المسافات..

نابليون بونابرت

بخطـواتٍ واثقـة دلفـت سـكرتيرة مكتـب رئيـس حكومـة الإدارة مُمسـكة تقريـرًا مـن نابليـون يُبـشره فيـه بدخولـه مـصر دون خسـائر تُذكـر؛ مجـرد مناوشـات مـع شـباب مصريـين، انتهـت بإعدامهـم.

وقـف رئيـس الحكومـة يتأمـل السـكرتيرة بعينـين شـاردتين، مـلأت لـه كأس النبيـذ.. تجرعـه سريعًـا، وصَـبّ لنفسـه أخـرى.

حينهـا دخـل عليـه نائبـه، لمـح السـكرتيرة، فطلـب منهـا الخـروج قائـلًا بصوتٍ هامـس لكـن بضيـقٍ واضـح: «نابليـون عُقـدة في منشـار الإنجليز.»

تحـرك الرئيـس واضعًـا يـده وراء ظهـره حـول مكتبـه مـرات عـدة أشـبه بالطـواف، وأخـيرًا قـال: «نابليـون أقـوى رجالنـا.»

- يا سيدي.. نابليون قرر إعدام حاكم الإسكندرية كأول خطواته!

صرخ الرئيس قائلًا:

- ويعدم الشعب بأكمله لو أراد.

خـرج النائـب وعـلى وجهـه علامـات الغضـب.. دخلـت السـكرتيرة الحسـناء مـرة أخـرى بتغنـج؛ أغلقـت البـاب خلفهـا.. وشرعـت في فتـح سَـحاب فُسـتانها الأسـود.

((إيزابيل))

أولى الأراضي التي خطوتها كانت مدينة الرب (الإسكندرية) أو «عروس البحر المتوسط» كما علمت مِن قاطنيها فيما بعد، لم يكُن دخولنا الإسكندرية بردًا وسلامًا على شعبها، فمنها استطاعت قواتنا خوض باقي بقاع مِصر، رغم مكر أهلها ووقوفهم في وجه كُل معتدٍ، كان بانتظارنا ما يقارب ستة آلاف رجل، يحملون السيوف ولا يرهبون شيئًا حتى أنهم أخفوا عنا الجِمال والخيول، شنوا علينا حربًا ليست بهينة وسقط الكثير من جنودنا بينما أصيب البقية بجروح، لن يمحوها الزمن، ترك المصريون تذكارًا على أجسادهم، اضطررنا للانسحاب المؤقت، عادت الجنود الفرنسية تُهاجم بشكلٍ أكبر وبأسلحةٍ أشد فتكًا حتى استولت على الإسكندرية بأكملها، كان حاكمها آنذاك يُدعى (محمد كُريم).. تحدث إليه (نابليون) بكُل ود، أراد التعاون بلا ضرر أو ضرار، شرط الشراكة في سلطة حكم هذه المدينة، فلم يعُد حاكمها ومُشرع قوانينها السيد (كُريم) فقط، تم التعاون لفترةٍ قصيرة ثم بدأ أنف (نابليون) يستشعر الخيانة، فُضح أمر السيد (كُريم).. لم يكن ليصافح نابليون ويتعاون معه، بل تم إثبات تهمة مُراسلته ل (مراد) بك والمماليك بكل خبث! كما تم اعتقاله، هو وكُل من ألقى عليه التحية يومًا، حُكم عليه بالإعدام رميًا بالرصاص، في ذلك الوقت تحديدًا، دار حديث بينهما في وجودي، فوالدي يصطحبني معه تمامًا كما يصطحب معطفه ذا اللون الأحمر، وقف (كُريم) شامخًا، وفي عينيه نظرة تحدٍّ، لا تُلائم شخصًا، ينتظر الموت. عرض عليه (نابليون) إنقاذ نفسه مُقابل ثلاثمائة ألف (فرانك).. صفقة مُربحة ل (نابليون) تعوضه عن مضيعة الوقت التي سببها السيد (كُريم) لكن جاءت المُفاجأة حينما رفض السيد (كُريم) دفع المال! رغم ثرائه، قطب (نابليون) جبينه، وفغر والدي فاه ثم عم الصمت والسكون المعتقل،

حينها خرجت الكلمات من فمي دون التحكم برد فعلي، فقلت:

● كيف يمكن لشخصٍ عاقل، أن يُفضل الموت بدلًا من دفع المال؟! أجُننت؟!

ابتسم ابتسامة ساخرة ثم قال جُملة واحدة:

● إذا كان مُقدرًا لي الموت، فالمال لن يعصمني منه، وإذا كان مُقدرًا لي العيش، فلماذا أدفع؟!

علمتُ بعدها أن الدفع مُقابل النجاة من الإعدام إهانة، وشخص في مثل منصبه إذا قُدر له الموت، فليمت بطلًا في أعين شعبه خيرًا من البقاء على قيد الحياة بعارٍ سيظل يلاحقه حتى يلاقي ربه، اصطحبت القوات السيد (كُريم) على ظهر حمار، والحراس يحملون الطبول، أرادوا إذلاله واحتقاره، بل وإهانته لأقصى درجة، كفضيحة عروسٍ شرقية، اكتشف زوجها أنها ليست عذراء! أصبح عبرة لمن يعتبر، صاح الجنود في العامة قائلين:

● هذا جزاء من يُخالف الفرانسيس.

فُصل رأسه عن جسده، وتم تنفيذ الحُكم، ارتعدت فرائص البعض ثم رحلنا عن الإسكندرية ووطأت قدماي أرض القاهرة.

الكثير من الغوغاء والجلبة أحاطت بي قبل الولوج إلى الأراضي المصرية، مناوشات استمرت بضع سنين بحضور (الجنرال فيليب) أبي، الذي رافق نابليون في خططه الحربية كظله.

كانت فكرة السيطرة على مصر وجعلها مستعمرة فرنسية تحت النقاش منذ أن قام (البارون دو توت) بمهمةٍ سرية إلى بلاد الشام في ١٧٧٧، لفحص الجدوى، كان تقرير (البارون) إيجابيًّا، لكن لم يتم اتخاذ أي خطواتٍ من قِبل بلدي حينها، أصبحت مصر محل نقاشٍ بعد ذلك بين (شارل تاليران) و(نابليون) وفي ١٧٩٨، قدم نابليون اقتراحًا إلى حكومة المديرين للقيام بحملة للسيطرة على مصر، بهدف «الحفاظ على المصالح الفرنسية» وتقليل قدرة بريطانيا على الوصول إلى الهند، وإلحاق الضرر

بتجارتها.

في النهاية حُسم الأمر، سنغزو مصر هذه الليلة، وسأكون أنا ضِمن الحملة.

لم يكُن الأمر سهلًا بالنسبة لي، وقع الخبر على رأسي كالنكبة، بلد لا أعرفها، لغة غليظة في النطق والكتابة، حضارة مختلفة ومعقدة، يعتقدون أنفسهم أسياد الأرض بتماثيلهم العتيقة ومقابرهم المنحوتة على شكل هرم، شعب مخالط وممزوج بالشراكسة والعرب والأتراك، بقعة على الخريطة خاوية من رائحة أمي..

اختلجت قواتنا سَكينَة خرير الماء ليلًا خلسة، سيستيقظ العثمانيون على كابوسٍ لن يستفيقوا منه، سنظفر بجميع أرجاء المدينة دون قيام معركة، لن يصمدوا كثيرًا أمام ٤٠ ألف جندي،١٠ آلاف سفينة موانئ، ١٤ فرقاطة تجوب البحر مزلزلة أمواجه، ثم أيضًا ٤٠٠ ناقلة، مُعدات تفتقر إليها أي بلد في حالة الاضمحلال التي يمرون بها.

كانت ليلة طويلة بمسافة ألف نجمة يحتضنها قمر، كُل نجمة بألفي ذكرى، أفلتها وراء ظهري، وبعددٍ لا يُحصى من الغصات التي اخترقت قلبي مجلجلة موضعه..

هل للنسيان طريق أم كُتب على قلبي أن تنهشه جذوة الحنين لينصهر تاركًا رماد آلامي صالبًا مُعذبًا إياي بلحظات خذلاني وسيلان دمعي؟!

قضيت ليلتي السابقة في حزم أمتعتي، نثرت أغراضي في أرجاء الغرفة، تلك الغرفة التي احتضنت شجني كالملاك الحارس، واحتوت فرحي وبهجتي، دقات قلبي وابتهالي، استغاثتي وتوسلي.. ضممت صورة أمي الشقراء، لم يتضح ذلك بالصورة الورقية ذات الأبيض والأسود.. لكني دومًا أذكرها بالألوان، فهي حية بداخلي، لم تمُت أبدًا.

قبلت الصور برخاوة وطويتها ثم أضفتها إلى أغراضي، تُرى هل يملكون

الفساتين الفاخرة التي أبتاعها في بلادي؟ لا أظن.

وجدت في أحد جيوب تنورتي بضع (الفرنكات) الفرنسية التي سأضطر لاستبدالها قريبًا بعُملةٍ لا يفقه لساني لفظها.

لماذا تتشبثين الآن بتفاصيلك التي حملت المُر الذي طغى على حلاوة أيام عمرك أيتها المتمردة أم ترهبين القادم؟.. صفعتني الحياة مئات المرات في أوطاني، فكيف لي تخيل حياتي المغتربة؟! ليلي بارد في فراشي، فكيف أطمح إلى الدفء؟ أن يُشفق على فراش لم يعهد أنيني، ولم أجهش بالبكاء عليه بالساعات! اضطراباتي وضحكاتي، صمتي، صومعتي الصغيرة..

«كدنا نصِل يا سيدي»

استفقت من شرودي على صوت أحد الجنود على متن سفينتي، عقصت شعري المتناثر في جزع، التقطت شهيقًا طويلًا ممهدة لنفسي الرحلة لأواجه المعضلة برباطة جأشٍ وثبات.

نسمات الهواء، ليست باردة ولا بالأحرى ساخنة طفيفة ولطيفة، تدغدغ وتداعب خصلاتي والمكشوف من جسدي، تطاير فستاني وانتفخ من إثر لفحات الهواء مسببًا انتعاشة أحببتها.

هل تُفشي تلك النسمات سرنا؟ تتطاير لتخبر المصريين بأخذ حذرهم منا! أصبحت خرقاء، ربما أصابني دوار البحر لأتفوه بهذه الكلمات، استقرت سفينتي الفرنسية في الميناء المصرية..

«والآن حان وقت العشاء، وستكون بلادكم وليمتنا!»

قالها أبي بنهمٍ ولعابٍ سائل، رأى بريطانيا أمام مقلتيه، فمصر مجرد وسيلة، وليستْ غايةً، لكن حين يسقط الغزال أمام أسدٍ ممتلئ المعدة نسبيًّا، هل سيتجاهل رائحة دمائه الطازجة أم سيلتهمه خوفًا من الجوع ليلًا؟!

((آدم))

اثنان وعشرون من يوليو ١٧٩٨.. استيقظتُ مع أهالي القاهرة على خبر تسلم مفاتيح القاهرة لنابليون،
نهار القاهرة طيلة عمري الثلاثون مشمس، أول مرة أرى الشمس غائبة، حتى الشمس خائفة من بارود الفرنجة!

وقفت أمام المرآة في غرفتي الصغيرة داخل شقة أسكنها أنا واثنان من زملائي، مُطلة على بيتٍ مكون من ثلاثة طوابق لا يسكنه أحدٌ، تحسستُ لحيتي وشاربي الكث وشعري البُنيّ المحلوق دائمًا، يقولون عني أجمل شباب السيدة زينب والغورية والحسين، جسدي متناسق، صوتي رخيم! أتحدث قليلًا، أرسلت لي فتاة من قبل رسالة مفادها أن عينيّ تجذبان الجمال لها.. ابتسمتُ لتذكري تلك الأيام، الآن.. الفرنسيون على أعتاب القاهرة،
ارتديتُ قميصي الأبيض، والبنطال الرمادي وربطة العنق السوداء؛ طيلة عمري (باشا ابن باشا).. أو هكذا يُقال لي.

من أنا؟ آدم.. ولن أقص عليك أكثر من هذا،

خرجت من البيت لأرى أوضاع الشارع،

قابلتني جارتي أم (أحمد) بعباءتها والبرقع المغطي قسمات وجهها

- يا آدم.. هل جاء الفرنسيون؟
- نعم.

احتضنتني أم (أحمد) و(رتيبة) فالأيام القادمة ثقيلة.

نادتني (أم السعد) قائلة:

- «سقتُ عليك النبي لتذهب وتستمع لخطبة نابليون».

هـزتُ رقبتـي موافقًـا، وتحركـت تجـاه باحـة المعسـكر الفرنـسي (١). وقـف نابليـون عظيـم الهيبـة، عـلى يمينـه ويسـاره جنـوده وحرسـه، بسـط أمامـه ورقـة طويلـة ثـم شرع يقـرأ بالعربيـة الجديـدة عـلى لسـانه الأجنبـي. (٢)

«بسم الله الرحمن الرحيم»
لا إله إلا الله، لا ولد له ولا شريك له في ملكه،
من طرف الفرنساوية المبني على أساس الحرية والتسوية، السر عسكر الكبير أمير الجيوش الفرنساوية (بونابرته) يعرف أهالي مصر جميعهم أنه منذ زمنٍ مديد الصناجق الذين يتسلطون في البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار في حق الملة الفرنساوية، ويظلمون تجارها بأنواع الإيذاء والتعدي، فحضر الآن ساعة عقوبتهم واحسرتاه! منذ عصورٍ طويلة هؤلاء المماليك الذين تم جلبهم من بلاد الأبازة والجراكسة، يفسدون الإقليم الحسن الأحسن الذي لا يوجد في كرة الأرض كلها...
نظرت خلفه، ملاك! فتاة تنظر بعينيها لكل جهة، البيوت، الحوانيت، الدكاكين، فستانها الوردي وتغطي صدرها بـ (شال) أبيض، ذراعاها البيضاوان وعيناها الخضراوان وأنفها الصغير وشفتاها الحمراوان،
لكن ما جذبني لها نظرتها؛ نظرت لي.. نظرتُ لها،
صرخ نابليون المجنون:

(١) ميدان التحرير في وقتنا الحالي.

(2) جزء من خطاب نابليون للمصريين.

«امتنعوا عن إطاعة السلطان غير ممتثلين لأمره؛ فما أطاعوا أصلًا إلا لطمع أنفسهم طوبى ثم طوبى لأهالي مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير، فيصلح حالهم وتعلو مراتبهم، طوبى أيضًا للذين يقعدون في مساكنهم غير مائلين لأحد من الفريقين المتحاربين، فإذا عرفونا أكثر تسارعوا إلينا بكل قلب؛ لكن الويل ثم الويل للذين يعتمدون على المماليك في محاربتنا، فلا يجدون بعد ذلك طريقًا إلى الخلاص ولا يبقى منهم أثر...»

((إيزابيل))

الجو هنا ساحر، الشمس ساطعة، أناس مُختلفون لكن تبدو ملامحهم هادئة، على أي حالٍ هذا الهدوء لن يدوم طويلًا..

وصلت القاهرة مع أبي الجنرال (فيليب) وحاشيته، أحد أهم أذرُع قائد الحملة الفرنسية على مصر (نابليون بونبارت).. نعم أنا فرنسية.

لا بُد أنك الآن تتساءل؛ كيف ذلك؟ أنتِ تكتبين بالعربية الفُصحى! سأخبرك لاحقًا.. كُف عن طرح التساؤلات وستعلم في الوقت الذي أختاره أنا.

ربما يعتقد البعض مِنكم أنني أوافق على فكرة الاحتلال وسلب حريات الدول، لكني لستُ كذلك، نعم أنا فرنسية وولائي الأول والأخير لبلادي، لكني ضد التسلط والديكتاتورية التي يقوم بها والدي وأعوانه، يخبروا شعوب الدول أنهم جاءوا للإصلاح والتطوير، إذًا لِمَ لا نفعل ذلك في بلادنا أفضل؟! بالطبع لا.. فكيف سيصبحوا قوى عظمى دون السيطرة والقيادة؟!

في اعتقادي يجب أن تتحلى تلك الدول بالشجاعة ويتحدوا معًا رافعين شعار (لأننا الأقوى والأغنى ولأنكم الضعفاء الفقراء) أما عن التطوير وما إلى ذلك، فأنا لا أعتقد أن الحرب تُحدث شيئًا سوى الفوضى.

طوبى ثم طوبى لأهالي مصر.. أما زلت تتحدث؟!

كان يلقي نابليون خطابه على العامة بنبرةٍ محذرة في باحةٍ شاسعة «أُقيم عليها مُعسكرًا حربيًّا فرنسيًّا.»

دعوني أعرفكم بي أكثر، نعم أكره التسلط وتقييد الحريات، لكن هذا لا

يعني قط أنني أُعادي بلدي أو ما شابه، لكني سئمت أجواء الحرب، لم أكُن كذلك من قبل.. مَن مِنا لم يغيره الزمن؟!

نظرت إلى الناس، بعضهم يحدق بـــ (نابليون) بغضبٍ شديد، ربما بحسرة، والبعض الآخر يحدق بي وبخصلات شعري الشقراء! عجبًا لبشرٍ تناسوا أنني من العدو فقط لإشباع رغباتهم بالتمعن والتدقيق بهيئتي!

لكن كان هو الشيء الوحيد الذي استطاع بنجاح جذب انتباهي.. لديه عينان واسعتان، لونهم لون انعكاس الشمس لكنها مُريحة للنظر، لا تُجهد عينيك البتة، ذو بنية جسدية قوية، يرتدي ملابس متناسقة الألوان، معظمها ألوان أحبها، يزين فمه شارب كثيف الشعر.

تُرى هل نال إعجابه فستاني الوردي أم جسدي فقط؟

لا يعنيني على أي حال! فلماذا أفكر في عربيٍّ من الهمج مثله حتى وإن كان وسيمًا؟! لكن الغريب أنه ينظر إلى عينيّ فقط.. لا جسدي!

- هيا ينبغي لنا الرحيل الآن.

مهلًا، اسمي إيزابيل ولن أخبركم أكثر، لم يحن الوقت لذلك بعد.

قال أبي: ستعيشين في حيٍّ يُسمى «السيدة زينب» بيت فارغ.. أمامه بيت لا يسكن فيه سوى ثلاثة رجال، يشهد الجميع باحترامهم، تحت البيت يقف جُنديان .

كتبتُ لها مئة رسالة وقطعتهم، الخوف يُكبل يدي، لو أن تفكيرها مُختلف عما ظننتُ سيؤدي ذلك إلى هلاكي، أخذتُ البيت ذهابًا وإيابًا عدة مرات، دخلت كل الغرف، الحياة مُخيفة، هي تتحدث العربية، أنا وسيم بالنسبة للمصريات.. لكنها فتاة فرنسية جميلة، بالتأكيد لستُ وسيمًا في عينيها، قلبي دق دقته الأولى حين رآها، جحظت عيناي خارج رموشي، العُمر واحد، الرب واحد، القضاء والقدر واحد، رسالة واحدة قد تُغير ميزان الحياة.

الرسائل المُحرمة:

للوهلة الأولى؛ أشعر بخفقان قلبي بتلك السرعة، منذ أول مرة رأيتك بها يا (إيزابيل) وأنتِ تُسيطرين على عقلي بالكامل.. في البداية قُلت لنفسي فتاة كأي فتاة أخرى، ما المميز فيها؟ ليس شعرك ولا جسدك، رأيتُ في عينيكِ الخضراوين ما لم أره في مصرية قط.. هدوء، شموخ، عزة نفس، حين علمت أنك تقطنين أمامي طار قلبي فرحًا، حاولت وضع خطة للإيقاع بكِ لكن عقلي كُبل بجمالك، نُسهل على بعضنا الكلام؟

أنا (آدم).. عُمري لن يُغير سطرًا من فصول قصتنا، مُطلق، زوجتي خائنة لذلك كرهتُ النساء جميعًا،
أخبرك سرًّا؟

كُل ليلة خميس أسهر مع راقصة مُحببة لقلبي، نشرب الخمر ونترك المسؤوليات جانبًا.. قطعت علاقتي بها فور وصولك حياتي، أملُك دُكانًا لبيع الملابس على الطراز الفرنسي والإنجليزي زبائني أغنياء وأبيع بالسعر الذي أريده، من أنتِ يا إيزابيل؟ من أنتِ يا من ملكتِ قلبي وعقلي في لحظات؟»

مَـن تظُـن نفسـك لترسـل إلى إيزابيـل جملـة تحمـل معنـي (الإيقـاع بـكِ)؟ يبـدو أنـك بحاجـةٍ لمعرفـة المزيـد عنـي، ومـا شـأني بخيانـة زوجتـك لَـك؟! يبـدو أنـك قـد رسـمت في أحلامـك أن مـا تشـعر بـه الآن مُتبـادل أو مـا شـابه، لكـن دعنـي أخـبرك سرًّا، أنـا أيضًـا عانيـت مِـن الخَيانـة مـن أقـرب الأقربـين.. لقـد سـلبت منـي أمـي! أهـم شيءٍ في حيـاتي والتـي ورثـت عنهـا عينيهـا الخضراويـن، كانـت دومًـا تُشـبههما بالغابـة لأنهـا واسـعة ويمكـن أن يتـوه المـرء فيهـا بسـهولة، لذلـك أُحـب عينـيّ كثـيرًا لأنهـما تحمـلان رائحـة أمـي، لـذا لا تطمـح إلى اكتسـاب ثقتـي بتلـك البسـاطة يـا سـيد آدم.. ولتعلـم أن ملامحـك الشرقيـة لم تنجـح في لفـت انتباهـي، تغافلـت عـن كـوني فرنسـية؟ ربـما، دعنـي أذكـرك بأننـي ابنـة الجنـرال فيليـب وبإمـكاني الـزج بِـك في السـجن في أي وقـتٍ أريـد.. آمـل أن تكـون قـد اسـتوعبت الـدرس جيـدًا.

سيدتي إيزابيل.. أعلم أنكِ نظرتِ لي أثناء خطاب نابليون.. ولو أردتِ زجي في السجن، فلمَ أجبتِ رسالتي؟!

أنا لا أرسم في خيالي سوى الواقع، والواقع يقول أنك تتبعيني من نافذتك، خيالك ظاهر من الخشب.

آنسة (إيزابيل) كما أعتقد.. فلو متزوجة ينبغي أن يكون هناك خاتم ذهبي كبير يزين يدك الناعمة أو سلسلة عليها اسمه تتلألأ في رقبتك المرمرية.

لا أريد منكِ الكثير.. فقط الحديث.

تعرضكِ للخيانة في وقتٍ من الأوقات يعني أن هُناك قواسم مشتركة بيننا.

لوني ليس كرجال فرنسا الذين يشبهون الحليب، أو يرتدون الذهب، أو يتسابقون بالخيول لشد انتباهكن.

دخول قواتكم أرض مصر، يعني أننا أصبحنا شعبًا واحدًا.

هل تتجسس علي؟! أنا لم أكُن أُتابعك، أردت فقط التأكد من معلوماتك.

ربما أنت بالفعل لا تُشبه هيئتهم، بل بالنسبة لي أنت أكثر وسامة منهم، لكن جميعكم تُشاركون الطباع نفسها.

نعم لستُ متزوجة ولن أفعل، لا يوجد رجل على وجه البسيطة يستحق الوفاء، أخلص له فيخون! تمامًا كما فعل أبي بأمي.. حتى أنني لم أحب أحدًا قط، كنت أقضي وقتًا لطيفًا معهم فقط، وكانوا على درايةٍ بذلك.

وما تِلك البساطة التي تخبرني بها أننا أصبحنا شعبًا واحِدًا؟!

ألست مُنزعجًا مني؟! ألا تبغضني لأنني واحدة من الذين سرقوا أرضك بالإكراه؟!

إذا كُنت مكانك لفعلت.

عما تريد الحديث يا سيد آدم يا قليل الكلام؟

ولِمَ لا تأتي لتحاورني وجهًا لوجه أم أن شاربك الكثيف يمنعك من الحديث واقعيًّا، لذا قررت مراسلتي؟! ربما تخشى التلجلج والتعثر أمام مفاتني.

وهـل تتأكديـن مـن معلومـاتي مـن خـلال مراقبتـي؟ أرجـوكِ يـا آنسـة أن تكـوني أكثـر حنكـة.

إذًا نحـنُ متشـابهين.. نقـضي وقتًـا لطيفًـا دون مسـؤولية.. القليـل مـن القبـلات والمتعـة اللحظيـة، وصباحًـا ننسـى اسـم مـن كان معنـا.

وأي أرضٍ أُخـذت بالإكـراه؟! نحـنُ شـعب مؤمـن بقضـاء الله.. وأنتـم يـا (آل فرنسـيس) أفضـل منـا في كل شيء.. لذلـك لا أبـالي إذا كُنـا شـعبًا واحـدًا أو اثنـين.. ففـي كُل الحـالات أنتـم أفضـل.

كيـف أذهـب لمحاورتـكِ وجهًـا لوجـه، والأحمـق صاحـب البذلـة الرماديـة يقـف تحـت شرفتـك كحائـطٍ لا يتحـرك؟!

أعـدك.. مـع أول قبلـةٍ لنـا سـأقص شـاربي.. حتـى لا أزعـج شـفتيكِ المصنوعتـين مـن اللؤلـؤ.

بالنسـبة للـكلام: مـن الجيـد ملاحظـة إني قليلـه.. وهـذا يعنـي أنـك مُميـزة يـا جميلـة.

وغريب أنكِ لم تتساءلي؛ كيف عرفت اسمك؟

هذا ذكاء المصري.. وظهر جليًّا يا آنسة.

يا لوقاحتك!

لكن أتعلم؟ أحببت جرأتك، فأنا أمقت الرجل الجبان.

ولأتحدث بصراحةٍ أكبر، نعم بك شيءٌ ما يُجذبني، ربما لونك القمحي الخمري، أو شعرك الأسود، شاربك أيضًا الذي سخرت منه المرة الماضية، يروق لي كثيرًا يا سيد آدم.

حدثني عنك، ربما أريد أن أعرف عنك المزيد، وكيف عرفت اسمي؟

على ذكر ذكاء المصري الحاد، قابلت الأمس طفلًا يبلغ من العمر ١٠ سنوات، أراد أن يبتاع لي بضاعة بضعف ثمنها الحقيقي، وغفل عن أننا مَن نُسعر ونُقدر البضائع في الوقت الحالي.

على أي حال، سأفصح عن شيءٍ عني، وفي المقابل ستخبرني أنت الآخر.. توفيت أمي حين كنت في الثامنة عشرة من عمري، سبب لي ذلك حزنًا كبيرًا، لم أستطع التخلص منه حتى الآن، رحلت بينما تعلم بخيانة أبي لها، الذي لطالما احتمى خلف جدار قلبها، حطم هذا فؤادي، وفقدت الثقة في الرجال جميعهم..

تبدو خطة منطقية لاستدراجي في الكلام.. حسنًا ما فعلتِ.. أنا (آدم محمود).. تزوجت جارتي الجميلة الرقيقة ثم خانتني مع أعز صديقٍ لي، تحججت بشربي الدائم للخمر، وأني أعاملها بغلظة.. يا للعجب! الفتاة نفسها التي اتهمتني بالقسوة كانت تختبئ تحت جناحي من مطر الشتاء وشمس الصيف وتساقط أوراق الشجر في الخريف! طلقتها بسهولة.. أعيش في تلك الشقة مع اثنين لا يحضران إلا ليلًا.. لكن منذ دخولكم مصر، هرب أحدهما إلى أهله في الأرياف، والآخر، لا أعلم إلى أين!

جسدكِ الممشوق المنحوت جذبني، عيناكِ الواسعتان كاتساع السماوات سحبتني، شعرك الملفوف كثعبانٍ أكل نفسه قد أكلني.

سألتُ نفسي: هل تريدها يومًا مثل أي فتاةٍ قابلتها؟

الإجابة كانت: لا.. أريدها في مخبأ قلبي كالأيام الخوالي.. حين كان لي قلب.

بالنسبة لاسمك.. خادمكِ الشخصي يردده في كُل نداء.

إيزابيل.. هل أحضر ماءً أم حليبًا؟

إيزابيل.. ليمون أم شاي؟

إيزابيل.. نتقابل في شقتي أم شقتكِ؟

إيقاعكِ بي ليس بتلك البساطة واليُسر، تذكر مَن أكون!

مؤلم ما حدث لك، أُقدر ذلك وأعرفه حق المعرفة.

قلبي هو الآخر كان لا يعرف للحُب طريقًا، أعتقد أنني الآن أخذت أولى خطواتي لمعرفته، والبداية هي عيناك.

تُجبرني على النظر إليهما كحب رؤيتي للنجوم ليلًا.

بِك شيءٌ خاص يسكنك، ربما الألم القاسم المشترك بيننا، يجعلنا أكثر جاذبية!

هناك صوت داخل روحي يستمر في الإلحاح علي بأنك رجل مُختلف، فحين وقعت عيناي عليك، أُغرمت بالسقوط.. ولا يكُف عقلي عن ملاحقتي بملامحك الدقيقة.

عزيزتي إيزابيل..

من قال أني أريد أن أجعلك تقعين في شباك حبي أو عينيّ؟!

ما زال أمامنا الكثير قبل الاعتراف بتلك المشاعر.

لستِ أول ولا آخر فتاة تُعجب بي، لو أردتِ المزيد، يمكنك زيارتي في أي وقت.

لقد مللت الكتابة وإرسال الرسائل بطرقٍ خفية حتى لا تقع في شباك أحدهم.

تريدين سرًّا جديدًا؟

أنا معجب بكِ، وهذا الجديد علي، فقلبي أصبح كالحديد، لا يتأثر بالنار أو الطرق عليه، أعتقد أنه مكسور، هل رأيتِ قلبًا مكسورًا من قبل؟

لا يعنيني لو اقتحمت القوات المساجد والكنائس والبيوت، لو قتلوا الأبرياء أو الأطفال أو النسوة!

فالعالم أجمع على كسري وكسر طاقتي وامتصاص قوتي، كرهت العالم الممتلئ بالغش والخداع، لولا الغانيات والقروش التي يتم وضعها داخل سلة صغيرة لما عشت.

الحياة بعد الخيانة أو الحب الأول مستحيلة! لكن أمثالك من ملكات الجمال والرقة يجعلن المستحيل مُمكنًا.

كيف حال قلبكِ؟...

لا تكترث لقلبي.. فإنه مثل زهرة تم زرعها في الصحراء، فأصبحت متعطشة للماء، وأنت أولى القطرات التي هلت عليه.

كم تمنيت الحصول على رجلٍ مُخلصٍ ومُتفانٍ في حُبه لزوجته، لكني لست كباقي الفتيات التي تقول هذه الجملة ويعقبها: «مثل أبي.»

فأنا حقًّا لا أبتغي ذلك.

يمكنني أن أذيقك جمالًا لم تتذوقه من قبل لكن الأهم، أريد أن تُصبح لي الأمان في زمنٍ مليءٍ بالحروب والصراع على السلطة، أفتقد هذا منذ رحيل أمي، لا تتعجب، أنا أفتح لك قلبي وأعي تمامًا ما أبوح لك به، فأنا دومًا التي يُلقى على مسمعها الأوامر، لكن لم يسمعني أحد مِن قبل، لذلك أتمرد وأعصي.. وإن استشعرت أنك تُشبههم؛ سأجعلك تندم على اليوم الذي انزلقت فيه من رحم والدتك.

حتى لا تنسى يجب أن أُنذرك، لا تتحدث معي بتعال، فأنا أُتقن الشموخ مُنذ ولدتُ، فبمجرد دخولك حياة إيزابيل ستُصبح كُل مَن كانت قبلي لا تستحِق مني سوى الشفقة على حالها.

أنا أيضًا أريد مقابلتك، سأنتظرك في تمام العاشرة، الخادمة تنام في التاسعة.. سأجعل الحرس ينامون مُبكرًا أو يلهون مع إحدى الغانيات أو العاهرات.

نسمات رقيقة تناثرت في روحي مُحلقة، أهو حُب أم مُجرد تأثرٍ بكلماته التي لامست روحي؟! مضطربة، لا أفهم ما أشعر به الآن! أحقًّا سأستقبله بمنزلي، أعلم عقبات قراري جيدًا، لكني أعشق التحدي وأهوى المُغامرة، الحياة بائسة بدون الغوص في التحديات وتجربة شيءٍ جديد، وهو كُل جديد؛ هيئته، طريقة مُغازلته، دم جديد لم يسبق لي مُصادفته، لا أخشاه، بل أخشى غموض هذه الليلة، كيف سأسير بدربٍ معصوبة العينين لأول مرة بحياتي؟!

مشوشة لا أستطيع توقع القادم لكنني سأخوض التجربة لا محالة، أثق بقوة مقلتيّ، لكني لا أثق بعينيه العسليتين، بإمكانها التحول لعدة درجات تأسر وتُنفر..

ما زلت لا أفهمه!

((آدم))

حلقتُ لحيتي وهذبتُ شاربي، ارتديتُ أفخم ثيابي، تعطرت بعطرٍ مصري، بالتأكيد ملت العطر الفرنسي، تحركتُ بخفةٍ على سُلم البيت.. الليل يداري عورة العاشق مثلي، ففي العشق؛ العين عورة، ولسان المُحب عورة، يذكر اسم محبوبته في أي مكانٍ وأي موضع، مهلًا؛ هل قُلت (محبوبتي)؟! هل دق قلبك ثانيًا يا آدم؟!

هل رفضت التفاح المصري لتستقبل فاكهة فرنسية بنكهةٍ مختلفة ورائحةٍ نفاذة، وأنوثة مفرطة، ورقة لا تنافسها إحداهن فيها؟!

من حقي اختيار فريستي، ومن حق فريستي اختياري؛ نعم.. هذا هو المنطق الذي يتم التعامل به في تلك الحالات.

سأزيدها عشقًا وتزيدني تغنجًا، أزيدها رجولة، وتزيدني رقة، أشبعها برائحتي وتطفئ ناري بشفتيها، خُيل لي أني حين أراها سألتقم شفتيها، وأعصر جسدها لينزل منه خمرًا أشربه وأسكر سكرةً لا أفيق بعدها أبدًا، تأملتُ يميني ويساري، لا أحد يراني، فوقي وتحتي، لا أحد يراقبني.

دلفتُ كقطٍّ هارب من كلبٍ مجذوب لبيتها، صعدتُ السلم.. سمعتُ باب شقتها يُفتح بينما تتغنج على عتبته.

أشارت لي يدها بالدخول؛ دخلت.

((اللقاء))

بشعرٍ مُنسدل يزينه رباط قرمزي اللون، وقفت أمام المرآة، أضع لمساتي الأخيرة قبل استقباله، كم أعشق عطري الفرنسي ذاك! حتى اسمه مُختلف (dead of night) مناسب لليلةٍ كهذه.
ارتديت فستانًا صارخًا بعض الشيء، يكشف مُنحنياتي العُليا قليلًا ويُبرزهما، مُنبسطًا للأسفل بارزًا خِصري.

لحُسن الحظ أن خادمتي الخاصة قد غاصت في نومٍ عميق، لن تستفيق منه حتى إن شب حريق داخل المنزل!

شعرت باقتراب خطواته إلى الباب ثم ذهبت للتأكد، نعم هو بالفعل! بالهلة نفسها ذاك الصباح..

قابلته بابتسامةٍ، والقليل من التغنج قائلة:

- تفضل بالدخول، عطر مميز حقًّا لكن أين صُنع؟
- إنه مصري؛ بالتأكيد مل أنفك رائحة عطر بلدك.
- لا أمل مِنه أبدًا، لكن لا بأس بالقليل من التغيير.
- من بعيد رأيت جسدكِ كجسد ملاك، لا توجد فيه عيوب.. لكن من قريب أيقنتُ هذا.
- هل تُحاول مُغازلتي الآن؟.. على أي حالٍ أنت أيضًا تبدو أكثر رشاقة عَن قُرب؛ حلق لحيتك خيار صائب، هكذا أفضل.

في غمضة عينٍ جلستُ بجانبها، وقلتُ لها بهدوء:

- أخبرتكِ.. مع أول قُبلةٍ سأقص شاربي.

ابتسمت رغمًا عني قائلة:

- لن يحدث حتى وإن تحررت بلادك.
- وما فائدة تحرير بلدي وقلبي قد وقع أسيرًا لعينيكِ؟

لمعة عينيه أشبه بصفاء انعكاس القمر ليلًا على البحر، بها سِر لا أفهمه لكنه يجذبني..

وضعت راحة يدي على كتفه اليسرى قائلة بعنادٍ وعينين بهما القليل من التحدي:

- وكيف يُمكنني تحريره؟

أشرت لغرفتها المُطلة على غرفتي.

- لكن هذا يعني أسرك بالكامل، ألديك علم بذلك؟
- لا أحد ينسى إيزابيل.. سأسكن وريدك حتى الممات.

وضعت يدي على خدها وقلت هامسًا:

- تجرين مجرى النبيذ في الدم.

اقتربت مِن أنفاسه كثيرًا حتى بات يستنشق زفيري، وأردفت هامسة:

- هل اعتدت مغازلة النساء بالخمر لأنك تعشقه أم لأنك تريد نسيان مع مَن قضيت الليل؟

ثم ابتعدت حين شعرت أنه يقترب أكثر..

- لو شربت مقدار نهر النيل خمرًا، لن يجعلني أنساكِ.. لماذا قُمتِ؟

- أعدك ألا تنساني، لا يروق لي عطرك على ذكر النبيذ، تريد أن تشرب؟
- عطري لا يروقك! آسف سأغيره المرة القادمة.

كوب (براندي) أحمر سيفي بالغرض، كان لطيفًا للغاية، صراحة لم أكُن أريد الابتعاد، تمنيت الاقتراب أكثر، يمتلك شفتين مُثيرتين، اشتهيت الاتكاء على كتفيه مسترخية في أحضانه التي يبدو أنها دافئة.. شردت بينما أُحضر (البراندي) الخاص به.

- تفضل، متيقنة أنها ستكون كأسًا مُختلفة هذه المرة، فأنت جالسًا بقربي.
- بالتأكيد مُختلفة؛ إنها تحمل رائحتك!
- إذًا.. من هو فيليب؟
- لعنتي الأبدية.

شفتاكِ تريد قول الكثير.

- ربما، لكن ليس كُل ما بداخلنا يستحق البوح.
- لا يستحق أم أننا نخشى البوح به؟!
- لست خائفة، بل يجب أن يرهب هو، على أي حال، مَن لا يعرف فيليب؟! فأنت بالكاد تعرفه وعلى علمٍ بمركزه.
- يخطط اقتحام الأزهر؟
- فتنة طائفية؟ لا أظن.

هل تقفون لرجال البذلات الحمراء بالمرصاد عِند دور العبادة؟

- لو أن كلبًا نجسًا دخل مسجدًا، نقوم بقتله.

- غضبت الآن لأن الأمر تعلق بديانتك! لا تخف، إنهم ليسوا بهذا الغباء والسخف، فإن أول ما وعدوا شعب مصر به، هو حماية دور العبادة واحترام العقيدة.. أم أنك لم تستمع للخطاب وزاغت عيناك حين وقعت على وشاحي الأبيض؟

- خطاب! تتوقعين من شخصيةٍ مثلي التركيز مع مخبول مثل نابليون؟! عندي سؤال؛ أنتِ وجميع الفرنسيون تتحدثون العربية.. هل تعلمتوها في الكنائس؟

- بالطبع يجب أن تحث حواسك على الاستماع، إنه يتحدث بينما يعتلي مِنصة داخل بلدك، وليس من قصر فيرساي يا عزيزي.. تعلمت العربية على متن السفينة قبل بضعة أيام من دخولي هُنا، يوجد خبراء متقنون لتلك اللغة الغليظة.

- غليظة؟! بالفعل غليظة عليكم، فأنتم أوراق سهل تقطيعها!

- نابليون لن يستمر في البلاد كثيرًا.. خطته ليس احتلال مصر.. خطته القضاء على أسطول الإنجليز.. وأنت فظ.. أصبت لكن بالكاد هُناك مصالح أخرى، سمعت أن هُناك دوق فرنسي وضع خطة مُذهلة لربط البحر المتوسط بالأحمر، مشروع تحت قيد التنفيذ.

- أتعرفينها بالتفصيل؟

- لا، فقط أعلم عنها القليل، فهذا ليس من شأني.. ألا تريدون استعادة أرضكم المسلوبة أم ارتضيتم الأمر الواقع؟! آه، أعتقد ترضون بقضاء الله لكن أتعتقد أن هذه إرادة الرب أم أن حُجة الخائب هذه الجُملة؟!

- أي جملةٍ فيها ذكر الله تقال بينما أحمل بيدي كوب النبيذ عبارة عن فجور.. لكن الأرض ستعود؛ لستم أول عدو يُدفن على أرضها!

نظرت إلى عينيه ولامست أناملي رقبته بلين ثم استطردت قائلة:

- أتتمنى لي الدفن على أرضك؟!
- نعم.. لأني سأتزوجك.. ونعيش في مصر لآخر يوم.

وقربت شفتيّ من شفتيها..

قهقهتُ حينها قائلة بينما أرمقه بتحدٍّ:

- ولِمَ لا تتزوج بمصرية؟! أنسيت العداوة التي كانت من المُفترض أن تحجبك عن جلوسك معي الآن؟!
- عندنا مثل مصري يقول: «ما محبة إلا بعد عداوة».. وأنا قد أحببتك.
- أنا لا أؤمن بالحُب، ذبحني مُسبقًا، فأخذت عهدًا على قلبي ألا يسقط في فوهة العشق، فهي لا تعرف الرحمة.
- أمك أم قصة غيرها؟
- أمي هي من علمتني الحُب والعطاء.

الأمر مُختلف..

- خانها فيليب؟
- وبشكلٍ مُهين، لم يحالفنا الحظ مع الحُب، طعننا بخنجرٍ طاله الصدأ، فأصبح يقتل ببرود.
- ألن تجعليني أتذوق شفتيكِ؟!
- ألم تتذوق البراندي أم أنك ما زلت جائعًا؟!
- البراندي مشروب يُسكر.. القُبلة تُحيي.

- أريد موتَك الليلة لتحيا فيما بعد راكعًا حاملًا بيدك شيئًا دائري الشكل، يزينه انعكاسات لامعة طالبًا مني الزواج.
- إذًا توافقين على الزواج بي؟

ابتعدت بضع خطواتٍ للوراء..

- هل تتزوج الحيتان بالقروش؟!
- لو أحب القرش الحوت يمكنه كسر أنيابه، ولو أحب الحوت القرش يمكنه بلعه دون أكله.
- بالنهاية لم تذكر أنهم تكاثروا، فقط التقم أحدهما الآخر.
- سيتكاثرون.. الحب يصنع المعجزات.
- حالِم، كيف استطعت تجاوز خيانة زوجتك؟
- قبل رؤيتكِ بثوانٍ لم أتجاوز، بعد رؤيتك تجاوزت.
- أنا أيضًا تجاوزت فقدان حبي الأول عندما أحاط ذراعك خِصري.

اخترق حديثنا صوت طلقة بارود، لم أهتم به..

- يبدو أننا تجاوزنا حزننا، اتركينا نذوب جسدًا في جسد.
- وهل ينصهر الحديد بالماء أم يحتاج لجذوة نيران لإذابته، والأهم.. التحلي بالصبر وكيفية تشكيله كيفما شئت.

أنهيتُ كوب البراندي وهممتُ بالرحيل..

- الوداع يا إيزابيل.
- الوداع أيها الغامض!

((آدم))

نزلتُ من شقتها الصغيرة وقلبي ينتفض من اللقاء الأول.. أول لقاءٍ منذ مولدي يَرفض شفتيّ!

صعدتُ مهرولًا.. هل قلبي ينتفض انتفاضة حُبٍّ أم شهوة؟! فتحت شرفتي، رأيتها.. ألقت برباط شعرها فطار خلفها، خلعت فستانها.. تعلم أني أراها، تعلم أني أرى جسدها المصنوع لي، البشر مصنوعون من طينٍ أما هي فمن سُكرٍ يُسكر السكارى أو حلوى وردية اللون مخمرية البشرة مسك الرائحة، شفتان تسكران المماليك! مع شرودي طرقت أم (أحمد) باب شقتي صارخة باكيةً فتحتُ لها.. حاولت ترجمة كلامها..

- أأ.. أحمد.. أحمدد.

سألتها بفزع:

- ماذا حدث له؟!
- اخترق البارود جسده!

دخلت بيتها لأول مرة في حياتي.. بساط أخضر يتماشى مع لون الحائط الأبيض، أربع غرف، غرفة بابها مغلق، وغرفة قد فُتح بابها، ظهر من ورائه سرير صغير، وغرفة أخرى قد تُرك بابها مفتوحًا أيضًا.. الأب يجلس على أريكة، ترتفع عن الأرض بضعة سنتيمترات فقط مُغطاة بملاءة ممتلئة بالورود، والنرجيلة بيده حين اغرورقت عيناه بالدموع.

أحمد على السرير، ينزف صدره دمًا غزيرًا! يتألم بصوتٍ مسموع، صديقه بجانبه يحاول ربط الجرح بقطعة قماش.

طلبت من أمه مقصًّا نظيفًا، وماءً دافئًا، و(جاز) وقطعة قماشٍ أخرى، وقطعة فحمٍ مشتعلة.

أحضرتْ كل شيءٍ في ثوانٍ معدودات.

الأب يدندن كلمات لا أتبينها ثم علا صوته قائلًا:

- والله وابنك بيموت يا أبو أحمد.. هتعرف تعيش؟!
- كان بيجي جايب لك هدايا نفعت في إيه؟!
- ابكي.. يجوز ينفع.. هتعيش بعديه؟ كيف يا أبو حميد؟!

الإنسان مغرور

يوم الفرح مسرور

يوم الفراق مكسور

لسة شاريلي عباية جديدة! نفعت في إية؟ كنت هات القرش أعمل عزاء، ولا الناس تخاف تيجي؟ يا ولدي ده أنت سيد الرجال. الأم تلطم خدها، والصديق الوفي يبكي بحرقة، وأنا لم أستطع إسعافه.. لقد مات!

بكى الأب وقال:

جدع يا واد

مُت بسرعة

هتعيش في قلوبنا

أحسن ما تعيش مَنسي

محدش هينساك

وجدع أنك مُت

مبصتش وراك

أبوك وأمك

عايشين من غيرك وبيك

بعدين يا أبو أحمد؟

هتعمل مناحة؟

الموت علينا حق

بس كنت جميل يا أحمد

مين شافك زيي؟

تاني ابن ليا يموت

طب ايه يا رب؟

ليه عيالي؟

وأنا مموتش؟

ليه مموتش؟

عمر الشقي بقي؟

تعبت من الشقا

ونفسي أموت

أوعدك يا وليدي

أول ما الموت يجيلي

هتلاقيني جنبك.

((إيزابيل))

غادر منزلي، انتابني شعور احتلني كُليًّا، نعم اشتقت إليه!

ربما لأنني أردت نشوب الحرب بين ذراعيه اللتين تبرز منهما العضلات بشكلٍ مبهر، لكنه ليس بمفرط، بل كأنه منحوت مِن أجلي خصوصًا، إذًا لماذا رفضتِ التقاط سِهام شفتيه يا إيزابيل؟!

أظن أنني توجست من ذلك الاتصال الجسدي، ربما أرفع رايتي وأعلن استسلامي له ويربح هو المعركة الأعظم، امتلاكي!

دلفت إلى غرفتي ذات الجدران البيضاء، والإضاءة الهادئة، جلست على سريري المصنوع مِن النحاس الخالص، مفروش بقماشٍ ذهبيٍّ ونقوشٍ سوداء مُزخرفة، أمامي مباشرةً مرآتي التي تعكس حقيقتي، بل ومشربيةً آدم أيضًا!

اختلست النظر دون أن أُشعره بذلك، وكما توقعت، كان يراقبني!

تِلك هي فرصتي التي لا بد من اقتناصها لأشعل لهيب قلبه الجائع لجسدي الناصع.

ماذا يحدث إذا أضفت المزيد من الحطب للنار؟

ستزداد توهجًا، أليس كذلك؟!

وهذا تمامًا ما أريده، أن أحرق مشاعره بلطف.

تحسست ظهري بأناملي، جذبت سحاب فستاني للأسفل ليكشف عن العديد مِن الشامات المنقوشة على جلدي بحرفية، ملونة بلون القهوة

عـلى بـشرتي البيضـاء، يلائـم شـخصيتي ذلـك التشـبيه، فأنـا أشـبه القهـوة، يعشـقها الجميـع رغـم مرارتهـا.

بالتأكيـد أسـتمتع بالأمـر، رأيـت ذلـك في مقلتيـه حـين كان أمامـي، الرجـل الشرقـي تُحركـه غريزتـه فقـط يـا عزيـزتي، أمـا عـن مشـاعره؟ ستستشـعرينها حقًّـا حـين تمـوت أمـه.

لم أعـد أشـاهد انعكاسـه بغتـة، عجبًـا! كيـف يمكـن لرجـلٍ أن يضيـع فرصـةً كهـذه ويرحـل؟!

بالكاد حدث شيءٌ ما.

حـين سـألت خادمتـي؛ أخبرتنـي بوفـاة ابـن جارتـه أحمـد وأنهـما كانـا قريبـين بعـض الـشيء، بـل وتـم قتلـه ببـارود فرنـسي..

ذهبـت إلى شـقته خلسـة لأقـدم لـه التعـازي، هنـاك احتـمالان؛ إمـا أن يعتـبر ذلـك لطفًـا منـي، أو ينهـرني بصـوتٍ عـارمٍ قائـلًا: اذهبـي إلى الجحيـم، أنـتِ وأعوانـك، اللعنـة عليـكِ وعـلى آل فرنسـيس.

على أي حال، طرقت بابه، فتح لي بوجهٍ عابس ثم أشار لي بالدخول.

بيتـه كئيـب بعـض الـشيء، ذو أثـاثٍ بسـيط للغايـة، وحوائـط مُنهكـة، كان يغطيهـا اللـون الأبيـض لكنهـا الآن مُتسـخة.

ربت على كتفه قائلةً بنبرةٍ هادئة:

- آسفة لخسارتك.

أومأ موافقًا ثم قال:

- شكرًا لكِ.

- أعـي تمامًـا مـا تشـعر، ربـما تبغضنـي الآن.. لا أدري إذا كان مـا أنـا عـلى وشـك قولـه منطقيًّـا بالنسـبة لـك! لكـن حقًّـا حزنـت لمـا حـدث

لصديقـك.

قبل أن ينطق بكلمةٍ واحدة، دق بابه.

وحـين فُتـح البـاب؛ ظهـرت أمامـي امـرأة، ربـما في العقد الخامـس مِـن عمرها، ذات شـعرٍ بلـون الجليـد وجسـدٍ يطغـى عليه الشـقاء، قالـت بنـبرةٍ مُنكسرة:

- أنـا جيـت عشـان احضنـك يـا ابنـي، مهـو بعـد ابنـي ماليـش غـيرك مـن ريحتـه.

احتضنهـا باكيًـا ثـم رمقتنـي شـزرًا، كانـت تشـتعل غيظًـا كأنهـا رأتني بـأم عينها أقتـل ولدهـا.. جففـت دموعهـا بيدهـا التـي انهمـرت مـن مقلتيهـا فـور ضمهـا لـــآدم ثـم اقتربـت منـي بملامـحٍ يملأهـا غضـب وحرقـة، وأردفـت قائلة:

- دم ولادي مش هيروح هدر، وهجيب حجهم من كل اللي جتلوهم وحرقوا جلبي، كانوا زي الورد انزرع في زرع شيطاني فضل ينهش فيهم من غير رحمة.. هاين عليا أخد روحك، بس ده مش هيريحني، ليا رب اسمه العادل هيبرد ناري وينتقملي من كل جبان فيكم بيقتل غدر.

((آدم))

المقاهي مفتوحة كما عاهدها سُكان الحُسين وغيرهم.. (السناري) خائف مما قد يحدث من الفرنسيس، كأن القهوجي ومن يخدمهم لم يسمعوا ما حدث! رُسل نابليون تجوب الشوارع دون هدم مسجدٍ أو حمام أو مقهى، الرجال يلعبون الشطرنج وينفثون النارجيلة كعادتهم، الغني منهم يشرب (السوربيت) والفقير يشرب القهوة والشاي، ذهبتُ إلى الحمام لأغتسلُ مما أنا فيه؛ ليت الماء يغسل حزن القلب، أو يدلك (الليف) هم القلب لا طين الجسد، قابلني (المكيساتي) بوجهٍ باسم، المنشفة البيضاء على كتفه، خلعتُ نعلي وجلبابي ثم وضعتهما في صندوق الأمانات؛ كبير، مُزين بنقوشٍ هندية، لم أفهمها يومًا، فتح أمينه ليصدر صريرًا مزعجًا، يتبعه صوتٌ خشخشة المفاتيح في يد (كياسي) ليجهز لي غرفتي؛ فأنا أتعامل مُعاملة (مُراد بك) حاكم القاهرة.

جلستُ في التختبوش في انتظار إشارة مُحممي المفضل، كان سودانيًّا لكن ببشرةٍ بيضاء، طالما ضحكتُ عليه مع أحمد.. رحمك الله يا أحمد.

دخلتُ الغرفة، الدخان قليل، خلعت المنشفة التي تُغطي عوراتي وجلستُ في الماء الدافئ، خرجت مني آه خفية سمعها (متولي) مُحممي.

- البقاء لله يا باشا في أحمد.
- ونعم بالله يا متولي.

باغتني بسؤالٍ، لم أجد له إجابة..

- هل تصدق رواية صديقه؟
- لا.

إنني أعيد ترتيب الكلمات في عقلي.. حكى صديقه «حاول جندي أن يتحرش بابنة عمه.. لكمه أحمد.. فأطلق عليه الجندي.»

- صحيح يا باشا نابليون عاقبه؟
- بيقولوا.
- وصدقت اللي قالوه؟
- بتصدق الشيطان يا متولي؟!

خرجت تنهيدة من صدر متولي مُحملة برائحة الياسمين في جو الحمام قائلً:

- لا.

((إيزابيل))

التقطت أوراقًا قد دونت عليها بعض الملاحظات عنه، شهيق سريع ثم زفير ببطء، وبعقلٍ تملأه الكلمات والحروف المُبعثرة، أغلقت باب شقتي الخشبي وانطلقت بخطواتٍ مُسرعة بعض الشيء.

لِمَ التردد يا إيزابيل؟ أنتِ تعلمين عن ظهر قلب أن ذلك ما سيحدث، أتدعين الذهول الآن؟! لا ترتدي الوجه البريء، لا يُلائمك البتة.

القاهرة تختلف في تكدسها، الحُب واضح في عيون أهلها، يرمقون بعضهم بإعزازٍ وتقدير، يعي كُلٌّ منهم من أكون، فهيئتي مُختلفة عنهم، يرمقونني بتحدٍّ وشفقة، عاقدين العزم جميعًا بيقينٍ أن تِلك الأرض ملكهم وأنا مُجرد نزيلة أو عابر سبيل، ربما ينتظرون عاصفة كي أتلاشى مِن حياتهم للأبد.

وصلت أخيرًا إلى وجهتي؛ بوابة حديدية، نقوش على الحائط تُعبر عن انتصارات ومعارك، سجاد أحمر مُزركش، سِرت في طرقاتٍ طويلة، يدق نعلي النسائي الأرض بصوتٍ مسموع قليلًا، وبضربات قلبٍ متسارعة وعقلٍ شارد، جذبت مِقبض الباب ثم ولجت للداخل.

بنية جسدية قوية، لكنها هَرمت، شعرٍ أبيض بخصلاتٍ ما زالت تحارب الزمن وتقاوم لونها الأشقر؛ ينهر جنديًّا من جيشنا لقتله شابًّا مصريًّا دون داعٍ ثم أمر أحد رجاله بعودته فورًا إلى زنزانته فور رؤيتي، قابلني بوجهٍ مُبتسم وملامح مُتفائلة قائلًا:

- كيف حالك يا عزيزتي؟
- بخير.

- جيد، هل مِن جديد حول ذاك نائب السناري آدم؟
- لا، ليس بعد.. لكنه بدأ في الارتياح لي ويحاول إقناعي أنه تاجر ملابس، ويمتلك دكانًا يبيع فيه بسعرٍ باهظ.
- مُدهش! كُنت أعلم أن فتاتي مثل والدها تمامًا، ولديها حِنكة في كُل ما تشرع به مِن عمل.
- لست مِثلك، بل أمي.

قال بنظرة تفاخر:

- على أي حال يا إيزابيل.. أريد معلومات عن أحوال البلاد، وخطوتهم القادمة، فكما تعلمين آدم هو أقرب شخصٍ لمراد بك والسناري!
- حسنًا، فقط أمهلني بعض الوقت.

((آدم))

شوارع القاهرة لامتداد الجيزة تمتلئ بجنود فرنسيس، الأحذية ذات النعل الكبير، البذلات الحمراء بقطعة ريش على الرؤوس، سلاح البارود ممسوك باليد اليُمنى مسنود باليسرى ويتكئ على الصدر، أسيرُ كأني غراب ناعق، الجميع ينظر لي، ولا يجرؤ أحدٌ على سؤالي، طريقي مفتوح.. (الكارتات) تحمل الرجال، النسوة ينظرن من الشرفات، الأرض بها مياه راكدة؛ بعضها مُتسخ وبعضها لا، أسيرُ بمحاذاة النيل، يمتد لأفاقٍ بعيدة، الأهرامات الثلاثة تنظر تجاه السماء بعنفوان شابٍّ تبدل حال قلبه؛ بأمرٍ مباشر جاء من الصعيد يحمل ختم مُراد بك لقلب طفلٍ صغير، تحولَ في لحظةٍ لمحبٍّ عاشق، يرفض الانصياع لأمر ملكه.

هل تعلم إيزابيل مكانتي عند مُراد، والسناري أم أن خوفي يصور لي هذا؟!

سكنها أمامي مباشرةً وتغنجها يجعلني أخاف وأشك، والشك حين يدخل قلب الرجل لا يخرجه سوى البُعد والخمر!

سمعتُ من خلفي صوت حصان يتبختر، أطلت (زينة) زوجة السناري بابتسامتها العذبة قائلة:

- لا تخف يا آدم.. زوجي يخبرك أن نجمك ساطع، لن يفشل.. ستنجح مهمتك؛ فقط ينبغي أن تكتفي بطريقتك الناعمة معها.»

اشتهر زوجها بالتنجيم والسحر، كان عبدًا فقيرًا تدرج حتى وصل لمكانته، رجل أسود البشرة، غليظ الهيئة.. يتزوج بـ (زينة)؟! زينة التي يلقي الرجال الأموال أسفل رجليها لينالوا الرضا؟! والسيدات يلجأن إلى الساحر ليراهن أزواجهن أجمل منها، عجبتُ لك يا زمن!

حكايتي عن عائشة مع إيزابيل تُصيبني بالاضطراب، أخاف أن تدمع عيناي.. عائشة الوحيدة التي أحببتها لكن خيانتها لي لا تغتفر، للأسف هزة قلبي مع زينة هي نفسها مع إيزابيل صاحبة الرداء الفضي.

وقفتُ أسفل (أبو الهول).. كسر (نابليون) أنفه الكاملة، كُنا أطفالًا يا أحمد حين أخبرتني: «سأكبر.. وأركبه.»

كبرنا ولم تركبه!

تحول الصمت المطبق إلى صخب وضجيج (عربجي) قائلًا:

- وسع يا واد من قدام الفرسة.

((إيزابيل))

بعد نزولي مِن مبنى فيليب المدعو أبي.. استولى الضيق على أنفاسي، فقررت التجول في شوارع (المحروسة) كما يلقبها المصريون.

سِرت على أقدامي بدلًا من العربة الفرنسية المليئة بالحراس، باهظة الثمن.

أردت الاختلاط بعامة الشعب والتعرف على عاداتهم والاستماع إلى اللهجة المصرية، تَطْرَبُ أذناي حين تتردد عليها لهجة مُعقدة رغم بساطتها.

سيدات حي السيدة زينب يتسمن بملامح شرقية أصيلة، كُحل أسود كثيف يبرز جمال عيونهن معطيًا إياها رونقًا خاصًّا ليغطي باقي الوجه شيءٌ أشبه بالشباك، علمت لاحقًا أنه يسمى (بُرقع) مرتديات العديد من الأساور التي تجلجل مع سيرهن وحركاتهن.

الرجال على المقاهي يتسامرون عن العمل تارة، وعن أوضاع البلاد تارةً أخرى، ناظرين إلي باشمئزازٍ زافرين تجاه وجهي دخان النارجيلة الخاص بهم..

لم أعرهم اهتمامًا، أردت التجول وشراء بعض الأقمشة؛ الدكاكين تبتاع شيئًا دائري الشكل مُرتفعًا لأعلى قليلًا، أحمر اللون، يتساقط منه شرائط لونها أسود، ظللت محدقة به محاولة استيعابه..

- هل هذه قبعة؟!

سألت البائع..

- الطربوش مش للحريم يا آنسة.

هذا اسمه إذًا، لذلك العديد مِن الرجال يرتدونه.. لكنني اشتريت واحدًا!

بينما أتجول لمحت طفلًا ينهره جندي فرنسي، هرولت إليه مُسرعة وبنبرةٍ مرتفعة بعض الشيء قلت:

- ماذا حدث؟
- لقد سرق طعامي وسبني بالفرنسية.
- كيف ذلك؟ إنه طفل مصري!
- يتعلمون كُل شيءٍ في سبيل إثارة غضبنا يا سيدتي.

أمرته بالذهاب وجلست على ركبتيّ مواسيةً الطفل قائلة:

- هل كنت جائعًا، ولذلك سرقت طعامه؟

أومأ برأسه نافيًا ثم استطردت قائلة:

- أعلم أنه بداخلك غضب عارم وتفترض سوء النية بنا جميعًا، ربما أنتَ على حق، لكن المرة القادمة، افعل ذلك دون أن تدعه يراك.

ابتسم ورحل!

شرع الليل في الدخول، لففت الملاءة السوداء على خصري وكتفيّ مرتدية ذاك الحذاء الغريب الذي يصدر صوتًا صاخبًا، وضعت أحمر شفاهي، وحددت مقلتيّ بكحل مصريٍّ أصيل، للوهلة الأولى ارتعبتُ، لم أعد إيزابيل!.. كيف تغير الملابس والعادات ملامحنا هكذا؟! لكني ما زلت بطعمٍ فرنسي، لا أنكر ذلك.

أردت رؤية رد فعله، أنا حقًّا فعلت ذلك من أجله فقط، يرتكب القلب العديد من الحماقات حين يعشق..

اختلست خطواتي إلى بابه، وبضربات قلبٍ متسارعة طرقته، فتح آدم وتعرف علي من الوهلة الأولى مقهقهًا بصوتٍ عارم حتى تساقطت دموعه لشدة

الضحك، ابتسمت حين رأيته يبتسم ليجذبني للداخل ويغلق الباب.

لِمَ تلك الابتسامة؟ تورد وجهي بسببها، أتخجلين حقًّا؟ أصابكِ العشق!

تحرك فؤادي محركًا معه مجرى الدم الذي بات راكدًا لسنواتٍ طالت، بثت الحياة في أوردتي وبت أشعر بنبضاتي، أأنت غريب يحمل صفاتي أم قريب وفرقتنا طرقاتي؟! أتشعر بجفاف أرضي المُتعطشة لأوصالك، وحضني المتسع لأحضانك، عيناي المشتاقتان إلى رؤيتك، ستعتزل الرمش في حضورك، ستطيل النظر إلى عينيك، سينقشع دمعي بقدومك، ويحل محله انعكاس لمعة عينيك الصافيتين كصفاء النهر، أأشبهها بالنهر؟ لكن عينَيك تنهرني بعذوبة ألف نهر، وكيف تصف الأنهار أو تعبر وأنا التي تنهار أمام مقلتيك العسليتين، مخلوطة بمزيج ألوانٍ يُسكر ويكبل، تشع ضوءًا طفيف، يبعث النور إلى الكفيف.

ماذا فعلت بي بسطورك القليلة؟! استوطنت عروقي وبت أفكر بك، أخشى تلاقي أعيننا، فعيناي تفصحان في حالة العشق بينما أرغب في ارتداء وجه الصرامة، لو تعلم ما بداخلي لما أمنت أبدًا بما أكنه لك من مشاعر.

تحطمت مثلي، أطاحت بك أسهم الخيانة، وطعنك بارود الخذلان، أعلم ما يقطن بقلبك، تضيق الدنيا وتضيق أنفاسك معها، تود الثأر منها لكنها دومًا الأقوى لأنها تطعن من الخلف، تستهدف نقاط الضعف، فيفيض الدمع محاولًا غسل الدنس الذي أصاب وجدانك لتبقى بمكانك ثابتًا يحركك الموج كيفما شاء، فأنت قد سقطت مغشيًّا عليك، تطفو باحثًا عن النجاة..

إيزابيل سقطت أسيرة الهوى لكني ينبغي لي كبح مشاعري الآن، ليس بطبعي الانزلاق في العلاقات، فأنا دومًا أمسك بزمام الأمور، ألجم قلبي ولساني، أستطيع أن أجعلك تشعر أني أعشق بإرادتي، وأن أنسى كما لم يوجد الشخص أو يولد من الأساس، أصبح ضريرة صماء بكماء، لكن داخلي يحمل عكس الحروف والكلمات، التصرفات والعواطف التي

أظهرهـا، ينطـق لسـاني: «أبغضـك».. ويـصرخ فـؤادي: «أعشـقك».

أحببـت جرأتـه، لا أطيـق الانتظـار لأمتلـك ثغراتـه، أود التلاعـب بمشـاعري أمامـه، فهـذه هوايتـي المُفضلـة، أن أشـغل عقلـك وتفكـيرك، يضـخ القلـب إيزابيـل بـدلًا مـن الـدم، هكـذا هـي حـواء يـا سـيد آدم.

وكأننـي تعلمـت العربيـة عـلى متـن سـفينتي مـن أجـل مُغازلتـك، عُـذرًا لـو خانتنـي تعابـيري، فأنـا لسـتُ ضليعـة في اللغـة مِثلـك، لا أملـك مـن الأشـعار أبياتًـا، تُحدثـك فقـط حـروفي المملـوءة بأحاسـيسي المكنونـة، لا أعلـم متـى سـتقرأ! أو مَـن سـيطلع عـلى كلـماتي! لكنـي أصـف بحريـة، لا أخشـى شـيئًا سـوى فقدانـك..

((المواجهة))

تململتُ على فراشي بينما كانت بجواري عارية.. مثلي.

قُمت، أخرجت من الخزانة زجاجة (شامبانيا) مُخزنة للمناسبات السعيدة والمميزة.

رجعت ومعي كأسين.. اعتدلت وأمسكت الكأس، تجرعته على عدة مرات برقة وعيناها تنظران لي، تتفحصني.

عقلي سأل: «من أنتِ يا شيطانة؟»

تجرعت الكأس برقة ليست مصطنعة لأول مرة في حياتي، تأملته بدقة بينما كنت مسترخية ثم اعتدلت وربطت شعري الذي تساقطت منه بعض الخُصلات.

- أنا حواء يا آدم.

ملأت الكأس مرة أخرى.

- لا يمكن لحواء مهما كانت سلب عقلي؟
- يمكن إذا كانت تُسمى إيزابيل.

كيف يمكن لـ آدم التغلغل لعروقي بهذه السرعة؟! هل دق الفؤاد حقًّا؟!

جلستُ بجانبها، نظرت إلى عينيها مباشرةً..

- أرى انعكاس حُبٍّ داخلك.. هل أخون حُبي أم بلدي؟!

اقتربت أكثر منه وحدقت بمقلتيه، لم أبغض في حياتي شيئًا أكثر مِن الخيانة لأنها تُعد من أشنع الجرائم في العشق بالنسبة لي، هل تجري دماء

أبي داخـل عروقـي وأعيـد الكَـرة؟!

لا لن أكون..

لكن ماذا عن وطني؟!

لقـد أيقظـت بداخـلي مشـاعر منسـية، لم يُحبنـي أحـد هكذا مـن قبل! منـذ رحيل أمـي وقلبـي في ظـلام دامـس، وكُنـت أنـت الشـمعة التـي أنـارت عتمتـي. لففتُ يدي حول رقبتها، وضممتُ رأسها إلى صدري.

بعـد عائشـة أصبحـت أكـره نسـاء العـالم، لم يجـل بخاطـري قـط أن تغـير عـدوتي نظـرتي لهـن مـرة أخـرى!

لففـتُ يـديّ حـول خِـصره كطفـلٍ يحتمـي بأبيـه وقـت الحـرب، حـين تعلـم حقيقتـي، هـل سـتتخلى عنـي؟ لا أريـد العـودة لحيـاتي الخاويـة السـابقة..

ضممته أكثر كأفعى تخشى هروب فريستها.

- هل حينما تعلمين حقيقتي ستمسكين بي بالقوة نفسها؟
- إذا أفلتني ستخِر قواي.
- لـو الأمـر بتلـك السـهولة، مـا وضـع كفـة الميـزان.. هـل تميـل للوطـن أم للقلـب؟
- لِمَ وُضـع ميـزان مِـن الأسـاس؟ يجـب أن نختـار، هـل الحـب دومًـا مصحـوب بـالألم؟!

ابتسمت بمرارة، اغرورقت عيناي ضحكًا بعد أن دمعت ألمًا!

- ألم تتحدثي عن الألم كأنك لا تعلميه؟!

بكيـت حتـى بـات نحيبـي مسـموعًا، أصبـت، فأنـا لسـتُ فقـط أعلمـه، بـل

تـرك ندوبًـا بداخـلي لا يسـتطيع الزمـن أن يطويهـا.

نظـرت إلى إيزابيـل التـي بدورهـا نظـرتْ تجاهـي ثـم هربـت مـن التقـاء الأعـين خوفًـا مـن رؤيـة دموعها.

سألتها بصوتٍ مسموع:

- دموعكِ بسبب علاقتنا أم لشيءٍ آخر؟

رمقتـه بعينـين دامعتـين وجذبـت وجهـه نحـوي لينظـر لي بـدوره، لكنـه كان يتهـرب، يذهـب بنظـره يمينًـا تـارة، وشـمالًا تـارةً أخـرى.

ثم استطردت بنبرةٍ هادئة وصوتٍ مبحوح:

- هل تعتقد حقًّا أن بكائي لأنني أسكن أحضانك الآن؟
- لا أعلـم، فـكل شيءٍ مُبهـم، أخـاف مثـلًا أن يقتحـم الآن جنـدي يقتلني ويُعـدم فيليـب بتهمـة خيانـة مثلًا!
- لا تخـف، فـإن حـدث ذلـك سـنموت معًـا، والـدي لـن يُشـفق عـلي أو تتحـرك عاطفتـه تجاهـي، فأنـا لسـتُ أحـد توسـعاته التـي يقـدم خططهـا إلى نابليـون عـلى طَبَـقٍ مِـن ذهـب!
- ألم تتجاوزي حدودك مع دولتكِ من وجهة نظرك؟!

تحسست صدره بأناملي قائلة:

- بلى، فعلت.

تذكر أننا الآن متساويان.

- هل تعلمين خطة فيليب للسيطرة على القاهرة؟
- هـل يتـم اسـتجوابي؟ تمنيـت الانضـمام إلى الحـركات المصريـة المُناضلـة مـن قبـل وتمـارس هـذا معـي؟

- لا، فقط معرفة ما تفعلون.. نابليون مجنون.. لا شك في هذا، لكن هل كُل معاونيه مثله؟
- نعم بل أسوأ.. ماذا عنكم؟ ما خطوتكم القادمة؟
- خطواتنا؟ أي خطوات؟! أنا مجرد بائع ملابس.
- أعلم هذا، لكنك مواكب للشارع المصري.. اسألوا أهل العلم، أليس هذا ما ترددون؟!
- جلوسك مع المصريين كثيرًا حول لسانك، بالمناسبة؛ أريد تعويضًا مناسبًا لخسارة تجارتي.
- ما حدث بيننا تعويض لا بأس به.

لمست بأصابعي جسدها قائلًا:

- كل ثانية معك تعويض عن حياتي.

استنشقت عبيره لأودع جسده الدافئ ثم همست في أذنه قائلة:

- يبدو أنني تورطت وأحببتَك.. يجب علي المغادرة.
- إيزابيل.. ماذا بعد؟
- أنتَ.
- هل تفهمين ما نفعل؟ طبيعة علاقتنا؟ أنتِ من أعداء بلدي يا إيزابيل!! وأنا أحبك!

حين قالها هرولت الدماء تسقي شرايين بدم جديد مليء بالعِشق، وبات الوتين يحتله اسمه، يتدفق إلى باقي أوردتي، أسرَع مِن جريان المياه في النهر!

نظرت إلى عينيه بوهنٍ قائلة:

- أنـا أيضًـا أُحبـك يـا آدم.. الأدهـى في الأمـر، أننـي أعلـم مَـن تكـون، لكِـن هـل إذا وقفـت أمـام المـوج سـتمنعه مـن الارتطـام بِـك؟ أوقعـت بي ووقعـت بِـك!

قبلته كثيرًا، وكأني أريد تعويضه عن كُل مُرٍّ مَر به في حياته.

أخبرتني أنها تحبني ثم قبلتني، سحبت شفتيّ سريعًا وسألتها:

- تعلمين ماذا؟
- أعلم أنك نائب السناري.
- من أخبركِ هذا الكلام؟!

جلست وقمت بوضع قدمٍ فوق الأخرى ثم أردفت بتحدٍّ قائلة:

- لا تستهن بي، أما زال ولاؤك له؟
- لمن؟ مراد؟ ماذا تريدين يا (إيزابيل)؟ هل تستغلين حبي لكِ؟

رمقته باستغراب قائلة:

- إذا كُنـت أود اسـتغلالك؛ لِمَ بادلتـك الحُـب إذًا؟ الأمـر مُختلـف، أريـد أن أطمئـن أن مـا بظاهِـر قلبـك الآن محبـة لي، وليـس اسـتثمار مصالـح عامـة كـما يفعـل فيليـب.

اعتدلتُ، ضممت رأسها إلى كتفي، وقبلت رأسها قائلًا:

- الرجـل المـصري لا يخـون إذا أحـب يـا إيزابيـل.. لكـن عديني.. أنـكِ لا تـشي بي لـــ فيليـب وأعوانه.

((إيزابيل))

عقلي مشوش بعد أن خرجت من منزله، لكن تغمُرني السعادة.. أعود بذاكرتي إلى تفاصيل تِلك الليلة التي قضيتها معه، صوته الحنون، كلماته الدافئة وإحساسه الصادق، لم يرغب جسدي بل أحببني أنا؛ لمعت عيناه عندما بادلته الشعور ذاته، كم أود العودة للاحتماء بأحضانه من جديد..

شوارع القاهرة جعلتني أبوح لنفسي بترهات ما كُنت لأتفوه بها في بلدي، ربما لأنني كنت في عرين الأسد، فكيف يمكنني الخلاص؟!

تعلقت بهذه المدينة، ربما لأنني وقعت في غرامه هو، أصبحت الشوارع والطرقات، حتى الأزقة تحوي رائحته التي هبطت مباشرةً مِن الفردوس للاستيلاء على حواسي.

ألهذا السبب أخبرته بمن أكون؟ نعم خشيت عليه بالطبع، لكن لم أكن أريد تكرار الخيانة له مجددًا، الطعنة الأولى حين تأتي من أقرب الأقربين تؤلم وتُحدث تصدعًا بقلبك، يسرى مداه ويطول مفعوله، أما الثانية تُفتت القلب وتبتر الروح، تؤدي إلى الهلاك، البعض يحيا لكنه بالداخل ميت.

ماذا عن أبي؟ سيقتلني حتمًا دون شفقة لو علِم حقيقة مشاعري وتغافلي عما كُلفت بفعله، لا أهتم، أنا فقط لا أريد إلحاق الأذى بنائب السناري الذي امتلك فؤادي ووهبني السكينة والسلام اللذين تعطش لهما وجداني.

وصلت إلى وجهتي «حي الأزبكية» تحديدًا الكنيسة القبطية.

بوابة كبيرة، تشييد بنائي مذهل ونقوش وزخرفات حُفرت بدقةٍ بالغة، أريد رفع القبعة للمملوكي الذي أمر ببناء هذا الصرح العظيم، جيد، نجحوا في فعل شيءٍ ما.

أضـواء خافتـة مُريحـة للعـين، عبـير المـكان يتسـلل إلى رئتـي ليجددهمـا ويطهرهمـا مـن كُل إثـم؛ جثـوت عـلى ركبتـيّ، ضممـت كفـي أمـام الآخـر الـذي يقابلـه، تلـوت صلـواتي وأقمـت شـعائري ثـم قُلـت:

- أعنـي عـلى مـا هـو قـادم في طريقـي، نعـم لم أقـترب مِنـك أبـدًا لكنـي مؤمنـة بوجـودك، غضبـت حـين سـلبت منـي أمـي.. أنـت تعلـم أنهـا تسـتحق العيـش، أخبرتـك مـن قبـل؛ ليرحـل العـالم بـأسره وتبقـى هـي، رحلـت أمـي وبقـي العـالم.. ولا أعلـم لِمَ! هـل للدنيـا قيمـة بعـد مُفارقتهـا؟! ألجـأ لـك الآن وأحتمـي بِـك، هـلا سـاعدتني؟ فقـط أثبت لي أنـك تسـتطيع سـماع أنينـي، أنـا بحاجـةٍ إليـك يـا إلهـي، أرجـوك الخـلاص لروحـي.

أنهيـت عبـادتي وخطـوت عائـدةً إلى منـزلي، رأيـت شـابًّا يرتـدي بنطـالًا أسـودًا وقميصًـا رماديًّـا، نحيـل البنيـة، بـدون لحيـةٍ أو شـارب، ملامـح بريئـة وعينـان طفوليتـان، بجانبـه فتـاة ترتـدي فسـتانًا قصيـرًا، يـبرز خصرهـا مُزركشًـا بعـدة ألـوانٍ بسـيطة، شـعر أسـود قصـير، أنـف مدبـب جـذاب، شـفتان عريضتـان، بـشرة بيضـاء، كانـت تتشـابك أيديهـما بشـكلٍ لفـت انتباهـي، تـرى هـل مـن شـدة حُبهـما أم أنـه الـوداع الأخـير؟!

لا أدري! فقـط تخيلـت نفـسي مـكان الفتـاة يحيـط يـدي حـضرة النائـب بهيئـة «الباشـا» التـي تميـزه، مـاذا حـل بـكِ أيتهـا المتمـردة إيزابيـل؟ أعشـقتيه لهـذا الحـد؟!

ومـا الحُـب سـوى الخـروج عـن الهويـة بكامـل رضـاك، رافعًـا الرايـة البيضـاء لمعشـوقك وحامـلًا السـيف لـكل مـن يقـترب منـه، أو مِنـكَ!

تعكـر صفـو يومـي حـين وقـف أمامـي بغتـة بملامحـه الصفـراء، وابتسـامته التـي تجعلنـي أود التقيـؤ لـيردف متعمـدًا أن تداعـب أنفاسـه مجـرى تنفـسي قائـلًا:

- اشتقت إليكِ يا حُلوتي.

كـم أمقـت لفحـة أنفاسـه التـي تشـبه الطعـام المُتعفـن، حاولـت التحكـم بأعصـابي ونـبرتي لكـن بـاء الأمـر بالفشـل قائلـة:

- ما الذي جاء بك إلى هنا يا (ويليام)؟! من أي جحيمٍ سقطت؟!

((آدم))

أغلقتْ الباب وراءها ورحلت، ظللت أنظر إلى وجهي في المرآة، كأن شخصًا مختلفًا عني ينظر، عيناي بعدما كانتا تَرميان بشررٍ أصبحتا ترميان ببُشرَىٰ.

تعلم أني نائب السناري!!

يكاد الشك يذهب عقلي، اعترفتْ لي حتى أقع في شباكها ثم تُحكم غلقها؟!

تجرعت كوبًا ثم الثاني ثم الثالث من النبيذ، نفدت القارورة، وعقلي لم يتوقف عن التفكير.

خرجت إلى المشربية الكبيرة، أنظر منها على الشارع، لعلي أرى لونًا مُخالفًا عن زي الجنود ولون الحزن.

أبو أحمد صوته يخترق أذني بآياتٍ قرآنية، وأم أحمد بالتأكيد تجلس بجانبه تتحسس سلسلة صدرها المُهداة منه.

لم أستطع نسيانك لكن القلب تغافل.

ماذا تفعل لو كُنت مكاني يا صديقي؟!

وضعت رأسي على الوسادة ثم نمت..

رأيته أمامي واقفًا بطلته الرائعة المُحببة إلى قلبي، يمد لي يده، أمسكتها بهدوء، وضع الأخرى على قلبي.. استيقظت على صوت أذان الفجر، توضأت لأول مرة منذ أعوام، وركعت.

((إيزابيل))

بخطواتٍ سريعة وقلب ينتفض، دخلتُ شقتي وأوصدت الباب بإحكام، بللت وجهي بالماء ودققت بتفاصيلي بالمرآة، تبدل لون خدي الوردي بلونٍ أصفر باهت كزهرة عباد شمسٍ منسية، لم يزرها نور الشمس، فذبلت دون أن يشعروا بها، كُتِب عليكِ الشقاء يا ذات العينين الخضراوين..

رغبت في الصراخ، ثقلت الأحمال عليك يا فؤادي، فأين المفر؟!

رجعت بذاكرتي عدة سنوات للوراء قبل المجيء إلى هنا، حيث كانت من أنجبتني لا تزال حية..

تربطني أنا و(ويليام) صلة قرابة لطالما وددت بترها، يراني ملكية خاصة به وحده، خُلقت لتكون تحت أمره وطاعته، لكني دومًا أحتج بصرامة، فأنا لا أطيقه أبدًا، حين يراني مع أحد غيره يجن جنونه ويصبح مثل الثور الهائج يصيح كثيرًا، يرمقني بامتعاض، يقبض رقبتي بقسوةٍ قائلًا:

- هذا الجسد مِلك لي وحدي، فلا تطمحين الزواج بأي رجلٍ سواي.

في ذلك اليوم تحديدًا، أتت أمي مهرولة غامرةً إياي بلين، تمعنت النظر بي جيدًا ثم رمقته محاولةً كتم غيظها، وقالت بنبرةٍ محذرة:

- إياك والاقتراب من ابنتي ما دُمت أتنفس، حتى بعد أن أموت، لا يستطيع خيالك إلحاق الأذى بها، أتعلم لماذا؟ حينها سيطاردك شبحي لتقضي المتبقي من حياتك مخبولًا، لكن يوجد حل يجعل نفسي تستقر للأبد وتنعم بنومةٍ هادئة لاحقًا.

اقتربت منه بضع خطواتٍ أخرى قائلة:

- يمكنني استئصال رجولتك التي لم تكتمل بعد، حينها لن أخشى على إيزابيل مِنك، لن تفرق عنها كثيرًا، وأستطيع أن أؤكد لك أنك ستصبح أضحوكة لنا لمدةٍ زمنية لا بأس بها.. تذكر؛ إياك وطفلتي، أتسمعني؟!

ابتلع ويليام ريقه بصعوبةٍ وأومأ بالموافقة.

هرب كالفئران ولم أره لفترة، حتى مرضت أمي.. حينها جاء متسللًا هامسًا في أذني متحسسًا ظهري قائلًا:

- آجلًا أم عاجلًا سترحل من تحتمين بها، وستصبحين زوجتي، شئتِ هذا أم أبيتِ يا حلوتي!

أبغضه، وُلد كي يجعلني أفضل الموت على النظر إلى عينيه.

انتشلتني دقات الباب من شرودي، نعم كان هو، ارتميت بين أحضانه بذعر.. شعرت أنه يمر بلحظات ضعفٍ مثلي تمامًا، جذبته وقبلته بحرارة، حملني إلى غرفتي وهمس بصوتٍ جعلني أذوب فيه أكثر:

- أنا بحاجةٍ إليكِ.
- أنا أيضًا يا عزيزي.

خارت قواي، سقطت دموعي على كتفيه، مسحها بأنامله برفقٍ ضامًّا إياي بشدةٍ لا تؤلم بل تداوي، ظل صامتًا لا يتحدث، تقطن وجهه ابتسامة، تطل منها أسنانه اللؤلؤية، ويهيمن عليه السكون.

- آدم.. هذا آخر لقاءٍ بيننا.

((آدم))

نزلت الكلمة كالصاعقة عليّ، حزن قلبي أكثر من يوم سماع نزوح الفرنسيين نحونا، خاف قلبي أكثر من يوم تسليمي نائب السناري الذي يرعى شؤون القاهرة أثناء رحلاته المتكررة، أحببتها، والفراق يشبه الصبار، يشبك شوكه في القلب ونزعه بالدماء.. الحزن يقطر دمك قطرة قطرة، حتى ينضب قلبك من دمائه التي تُغطي أوردة الحُب، فيعيش ليضخ فقط الدماء للعقل والأطراف ولا يحب أو يعشق.

ذات ليلة.. استيقظت ولم أجد عائشة بجانبي.. بحثت عنها في كل ركنٍ وغرفة، في الحمام والمطبخ، داخل الخزانة وفي الشرفة، ركن الغسيل على السطح.. ثم تذكرت؛ على هذا السرير، على هذه الملاءة، شهد عمود السرير عليها.. تخونني مع صديقي الذي طالما بُحت بأسراري له، صديقي الذي أعطيت له قلبي دون مقابل، صديقي.. الذي لم يعد صديقي، ورحلت معه زوجتي التي بدورها لم تعد زوجتي، لا أدري ما بال برودة أعصابي في تلك اللحظة! اتكأت على الأريكة، ابتسمت، رأيته يتلهف لارتداء بنطاله بينما تُغطي جسدها بملاءة لا تُغطي وحتى إن غطت، فالكرامة ضاعت، والشرف اندثر، طلقتها أمام عينيه.

«انتظر يا عماد.»

قُلت بهدوءٍ شديد.. قم بارتداء ملابسك على مهل، واخرج من الباب كالرجال، لا أحد يعلم وجودك هنا، فإن خرجت غير مُهندم، يشك الجيران، بعد دقائق من خروجك، تخرج عائشة إلى بيت أبيها، وتبلغه سلامي ثم تلثم يده لتخبره مبتسمة: «آدم طلقني.»

ثم نمتُ كأني لم أنم يومًا، نمت كأني حمامة تعب ريشها من الدوران.

مرت تلك اللحظات عليّ كرسمةٍ رسمها رسام البلاط، قررت يومها أن

أكـون ضيفًـا وزبونًـا مهـمًّا ودائـمًا لـكل كراخانـة أقابلهـا.. ولـكل عاهـرة.

والآن وبعـد أيـام طـوال، وسـنين قصـيرة، وشـموس كثـيرة، وأقـمار خفيـة، تظهـر تلـك الفاتِّنـة، حـين ظهـرت، ظننـتُ أن الدنيـا عـادت إلى مسـارها، ورأيـت الشـمس سـاطعة، والقمـر منـيرًا، والطريـق مُمهـدًا، والبيـت هادئًـا، والعيـون تـرى، والأنـف يشـم واليـد تتحسـس، والقـدم تتحـرك؛ لقـد عـاد كلٌّ إلى نصابـه الصحيـح.

الآن تريـد الرحيـل.. تكـرار المعانـاة مـرة أخـرى، أقسـم بـالله يـا إيزابيـل لـو تركتنـي لأجـل رجـل فرنسـي بـارد الـدم، سـأقتلك وأقتلـه، لـن تتركنـي فتـاة أخـرى أحببتهـا لأجـل آخـر.

أعلـم أن معهـا أوامـر للإيقـاع بي في فـخ الخيانـة، لكنهـا بالفعـل أحبتنـي.. لقـد أقسـمت عـلى مُصحـف وإنجيـل أنهـا أحبتنـي وحكـت لي كُل شيء، ليتبـدل الأمـر.. فأنـا أيضًـا قصصـتُ عليهـا.. يـوم اتفـاق مُـراد مـع السـناري معـي للإيقـاع بهـا..

«فتاة جميلة تقطن أمامك يا آدم.. أنت بالنسبة لأي فتاةٍ آدم.»

تحركت إلى الشرفة.. فتحتها.. صرخت بأعلى صوت قائلًا:

- إيزابيل.. إيزابيل!

فتحت مشربيتها..

- أرغب في الزواج بكِ؟

أجـزم أني سـمعت أنفاسـها ودقـات قلبهـا، أسـبوعان فقـط كانـا سـقف الكفاية لأحبها.

لم تغلـق مشربيتهـا ورأيتهـا تهـرول، نظـرت للأسـفل.. لم ألمـح سـوى فوهـة البندقيـة تدخـل البيـت.. ثـم ثـوانٍ وظهـرت صارخـة:

- حاول الهرب.

لم تُكمل جملتها... ضربني حارس من الاثنين ضربةً من البندقية على مؤخرة رأسي.

((إيزابيل))

كاد قلبي يتوقف من السعادة التي غمرتني بالكامل ودغدغت ثنايا روحي المُهلكة، ليتراقص قلبي مهللًا بحارسه الجديد الذي انتشله من الظلمات إلى النور حين قال بصوتٍ مُفعم بالأمل واندفاع الحب:

- أرغب في الزواج بكِ.

أردت القفز من مشربيتي لأحضانه مُباشرةً لكن كان القدر يخبئ لي شيئًا آخر قاسيًا كعادته..

بدلًا من قولي: «نعم أقبل الزواج بك» وقُبلة يعجز الوقت عن احتساب كم دقيقة استغرقت؛ وجدتني أقول: «حاول الهرب.»

رجال فيليب ذو البذلات الحمراء قبضوا على يدي بإحكام ودون التفوه بكلمة جذبوني للأسفل، صِحت بهم بغضب عارم: «أتركونِي، هل فقدتم عقولكم؟! ألا تعلمون من أكون؟! أفلتوا يديّ أيها الحمقى، سيكون حسابكم معي عسيرًا.»

مثل الصنم، لم ترمش لهم عين واستمروا في السير بي نحو العربة ، وجدته ينتظرني داخلها، يرمقني بشماتة محركًا سبابته وإبهامه بحركةٍ دائرية حول ذقنه حليقة اللحية.. مرر أصابعه داخل خصلات شعره البني وبات يرتل جملة واحدة منذ استقلالي العربة الفرنسية السوداء، تمنيت أن تدوي أصوات الأحصنة التي تجر العربة في أذني أعلى قليلًا كي لا أستمع لحروفه السقيمة.

«جرذ صغير ظن نفسه ذكيًّا، فأصبح عشاء القِط.»

- توقف!

قلتها لـ ويليام بصبرٍ نافد.

- لماذا؟ أتخشين على الجرذ مني؟

- لا، أحسنت تشبيه نفسك، فأنت جبان كالقطط، بركلةٍ مُهدِدة تركض.

أمسك ذراعي بقوةٍ ورمقني بنظراتٍ محذرة، لعق رقبتي بلسانٍ غليظ خشن كالكلب لأستشيط غضبًا بدوري وأحاول الإفلات من كفيه اللتين تشبهان السكين..

- ستتمنين الموت ولن تناليه يا إيزابيل.. أعدك.

بصقت بوجهه، هدأ وجداني بعد فعلي هذا.

- لن أقتلك الآن، ليس قبل أن تشاهدين آدم يلقى حتفه أمام عينيكِ الخضراوين.

لمحت آدم يجرونه الحرس مصفدًا، تحيط رسغه الأغلال، يرمقني بحنان، وصاح قائلًا:

- لا تخافي، سأكون معكِ قريبًا يا حبيبتي.

- تمالك نفسك يا عزيزي، لن أتركك.

الطرقات الطويلة، الأرض المغطاة باللون الأحمر المؤدية إلى غرفة فيليب مجددًا.. كانت فارغة، آه نعم، نسيت أن ويليام يعطي أبي جرعة كبيرة من الشحنات التي سيأتي ليفرغها بوجهي بعد قليل.

تُرى كيف حالك الآن يا آدم؟!.. أقسم أنني لم أود إفلاتك، خشيت عليك، حاولت حمايتك لكن كانت الحماية الفرنسية أشد متانة من يديّ الهزيلتين، وكما وعدتك سابقًا، لن تشي إيزابيل بك أبدًا.

جاءوا مسرعين وأوصدوا الباب ليصدر ضجيج عالٍ، رمقني أبي بنظرةٍ حانقة ناقمة قائلًا:

- خائنة صغيرة، لكن ليس على الجنرال فيليب.. كل شيءٍ تحت سيطرتي منذ البداية.

قهقهتي ملأت أرجاء الغرفة، أردت السخرية منهم بشكلٍ لاذع، ابتلعت ريقي ثم طلبت ماءً أشربه، ظهر الغضب على ملامحهم، أستطيع الشعور بحرارة غليان دمائهم من على بُعد أكثر من متر، تلك كانت المسافة بيننا.

اقترب فيليب أكثر وأردف قائلًا:

- هل تستهزئين بي؟!
- بل أستهين بمصطلحاتك يا أبي.
- ماذا تقصدين؟
- أنت آخر مَن يمكنه التوجع من الخيانة أو الاستياء منها، سمعت جُملة تتردد في الشوارع المصرية نالت إعجابي بشدة، يقولون: «كما تدين تدان» أريد رفع القبعة لهم الآن، هلا أعرتني قبعتك يا جنرال؟

رفع كفه محاولًا ضربي، فاستطردت مسرعة:

- يبدو أن عادات المصريين مُعدية، فهذه ليست بأخلاق الشعب الفرنسي، أين التحضر يا جنرال؟!

كادت رأس ويليام تنفجر، بشرة شديدة الحُمرة من أثر الغيظ الذي يشعره تجاهي في هذه اللحظة..

- يجب أن تضع لها حدًّا، لم تعد تهابك!

- هل استطعت وضع حد لمعاشرات أمك اللا نهائية؟!

قلتها بينما أرمق مقلتي ويليام جيدًا.

زمجر قائلًا:

- كم من المعلومات تفوهتِ بها لذاك الهمجي؟
- عدد نزوات السيدة (فيرونا) نفسها.

صفعني، سالت دماء خدي ثم خرجا معًا بعد أن اكتفيا بمعاقبتي بأسر آدم وتعذيبه.. أخذوه إلى الجهة الشرقية من المبني..

صديقي منذ نعومة أظافري، كنا نلعب سويًّا في حديقة قصري المتواضع في فرنسا، اختبأت منه مئات المرات أثناء لعب الغميضة.. فزت كثيرًا وكان يسعد حين أفوز، سقط ذات مرة في البحيرة الكبيرة خلف القصر، لم يكن قد تعلم السباحة بعد..

- إيزابيل.. أنا مدين لكِ بحياتي الآن، أعدكِ سأكون معكِ متى احتجتِ لي.

كبر كلانا حتى أصبح هو بالجيش وله العديد من السلطات، يأمر وينهي كيفما شاء، يحب فتاة من أصلٍ عربي، سيتزوجها عما قريب.. المميز بها عيناها.. العيون مرآة الروح، تظل أمامها مكبل اليدين لكن تتلذذ بالأمر ويصبح إدمانًا في مجرى الدم.

حان موعد خدمتي يا (روبرت) أحتاج مِنك إيصال هذه الرسالة إلى شخصٍ سأصفه لك.. تم حبسه في الجهة الشرقية.

الرسائل المُحرمة:

عزيـزي آدم.. أسرت فـؤادي الـذي يتـأوه الآن لأسرك، ابـقَ صامـدًا، لـن أتخـلى عنـك أبـدًا.

((آدم))

استفقت لأجدني مصلوبًا، أمام ناظري جُندي يضع البندقية في وجهي، دقائق تأكدت فيها أن فمي ينزف دمًا وأنفي يؤلمني.

دخل قائدهم، عظيم الهيبة، شعره يغلبه الشيب، بوجهٍ صغير، حليق اللحية.

أمر الجندي أن يخرج، فك زرار بذلته وخلعها، وقف أمامي بالقميص الأبيض والبنطال الأسود فقط.

- أهلًا يا آدم.

لم أجبه، اكتفيت بنظرة غلٍّ واضحة.

- آدم.. أخبرني بمكان مراد وستخرج.
- لا أخونه أبدًا.
- أخبرني أين بطلك المغوار الذي تركك مَصلوبًا هكذا؟! أتظن أن الخبر لم يصله! أخبرني مكانه ومكان السناري وأقسم لك بشرفي سأفرج عنك.
- لا.. سنحاربكم حتى الموت.

قهقه فيليب وجلس على كرسيٍّ خشبيٍّ ثم وضع قدمًا فوق الأخرى قائلًا:

- من سيحارب يا آدم بك؟ المماليك؟ الإنجليز؟ الأسطول

الإنجليزي دُمر بالكامل، والبري تم سحقه كنملةٍ داست عليها بغلة! المماليك.. هربوا جميعهم لبلادٍ مختلفة!

- الله سيفعل.
- الله!! أين كان (الله) عندما تجرعت الخمر ومارست الزنا؟!! الله.. الآن تتذكر الله!! لو وقف إلهك أمامي في معركةٍ سأقسمه نصفين، وأشرب دماءه بينما أجلس على عرشه الكبير.
- أنت تخطيت الحدود يا فيليب.

قام وأمسك فكي ثم رفع وجهي عاليًا قائلًا:

- أي حدودٍ يا أحمق؟! أي حدود؟ نساؤكم، أموالكم، أرضكم.. لنا.. عائشة جميلة، رأيتها.. بمعنى أصح، ضاجعتها!
- يا ابن الكلب!
- يا صديقي، كنت أراقبك حين كنت تضاجع ابنتي.. وأنا كنت مع طليقتك.. تعادل يا صديقي.
- قريبًا؛ أرضنا تكون بدونكم.
- وحتى يأتي هذا القريب، أنتم لنا.

رفع حدة صوته قائلًا:

- أين مراد، والسناري؟
- لا أعلم.
- هل (زينة) تعلم؟
- لو لمست شعرة من زينة...

- ماذا؟ تقتلني؟ تغتصبني؟ تحرقني؟
- يا ابن الكلب!
- كُنتُ أملك كلبًا في فرنسا، كبيرًا شرسًا، يجلس تحت قدمي يطلب غفراني ومغفرتي، فلكل مكانٍ إله.

تناقصت قدرتي على الكلام حين سألت:

- أين إيزابيل؟

صب كأس نبيذٍ وتجرعه قائلًا:

- العاشق الولهان الصغير يسأل عن حبيبته، لماذا لم تسامح عائشة؟ فجسدها موج كالبحار.

بصقت عليه قائلًا:

- لا تنطق اسمها.
- أوه.. هذا صحيح، الرجل المصري غيور حتى على طليقته.
- وأنت ديوث، جعلت ابنتك طُعمًا.
- يا صديقي.. إيزابيل ناضجة، تفعل ما تشاء! هل تلاحظ أني أنعتك بالصديق بينما تنعتني بـ (ابن الكلب)؟ أخلاق المصريين قد تغيرت!
- اترك عائشة، وزينة.. وإيزابيل لي، وسأخبرك بمكانهما.
- اتفقنا.
- مراد في الإسكندرية، يختبئ في سردابٍ يُعتق فيه تاجر إنجليزي خمره، والسناري عند عمه في الفيوم.

فـك فيليـب الحديـد مـن يـدي وقدمـي، جلسـتُ في ركـنٍ منـزوٍ، طلبـت مـن عقـلي اسـترجاع أي ذكـرى جيـدة، وقـد كان:

أسـير في الشـارع تائهًـا حتـى وجـدت ضالتـي، ابنـة السـاقي، تمسـك ذيـل جلبابـه بينـما يسـير، وتسـند القربـة بينـما يمـلأ بهـا مـا يريـد، تنحنحـت بجانبـه، فقـال:

- أهلًا يا آدم باشا.
- أهلًا يا حاج.

ثـم رحلـت وقلبـي ظـل معهـا.. أعـرف بيتـه، إنـه بيـت ذو طابـق واحد سـفلي، يُخـزن فيـه المـاء النظيـف ويغسـل في القربـة ويطعـم الحمارين.

ذات يـوم.. مـات قريـب لـه في قريـة عـلى حـدود محافظـة الإسـكندرية.. رحـل السـاقي وتـرك عائشـة في البيـت بمفردهـا مـع الحمارين؛ في شـارع لا سـكن فيـه، أخـذتُ ربابتـي، دندنـتُ تحـت مشربيتهـا «أصابـك عشـقٌ أم رميـت بأسـهمٍ، فـما هـذه إلا سـجية مغـرم.»

خرجـت.. طلـت مـن الشرفـة، شـعرها أسـود لامـع، أشـم رائحتـه عـلى بعـد خمسـة أمتـار، وهـي المسـافة التـي بيننـا بالفعـل، عيناهـا سـوداوان تضفـي عليهـما جمـالًا فـوق جمالهـا، شـفتاها كحبـة عنـب نضجـت قبـل أوانهـا..

«أصابك سهـم أم رُميتَ بنـظـرةٍ ... فمـا هـذه إلا خطيئة مـن رُمـي.»

رمت لي تفاحة، قضمتها، فقالت بصوتٍ هادئٍ يشبه صوت الربابة:

- قابل أبي لو أردت الزواج بي.

وأغلقت شرفتها بينما تُتمتم:

- ألا فاسقِني كاسـاتِ راحٍ وغنِّ لـي
بذِكـرِ سُـليـمـة والكمانِ ونغِّـني.

بعد رجوع أبيها خطبتها، مهنتي واسمي كانا بمثابة نقلة في حياتهم، ترك الأب السقاية.. وعمل في سرايا البكوات كرئيسٍ للخدم، وتركت الأم حياكة الملابس بثلاثة زر محبوب[1] وأصبحت تقبض عشرين زر محبوب في الفستان الواحد لزوجات البكوات، وارتدت قلادة ذهبية تزين رقبتها، تجلس بجانب السيدات؛ زوجات وجواري البكوات يتحدثن، يفضفضن ما بداخل الصدور، يشهقن عند سماع خبرٍ جديد، يصرخن عند رؤية فأر، يضحكن عند استيقاظ واحدة منهن ظهرها يؤلمها، يهمسن عند دخول (الفكهاني).. العزباء يعجبها لحيته، والمتزوجة ترى زوجها الدنيا وما فيها، سرايا (مراد بك) شاسعة، حين يجتمع بأولياء الدواوين، يوم سعيد عليهن وعلى الخدم، وعلى الساقي (قديمًا).. النارجيلة تُعمر من جديد، حجر المعسل قد يوضع عليه قطعة حشيش لو جاء الوالي الهندي، على سطح السرايا عش دجاج يصدر صوتًا حين يفزع، وحين يفرح، وبرج حمام، وقفص آخر للديوك، منعًا للفتنة!!

(١) العملة المتداولة في هذا الوقت والتي وضعها المماليك.

ليلة زفافي على عائشة قُلت لها:

- الأسماء في مكنونها تُخبرنا بالشخص ذاته، أنتِ كُل الأسماء.. فكيف يكون معرفتك؟! زهور عباد الشمس لو تحدثت لقالت: «من فضلك اتركي لي القليل من الجمال، يا سارقة الجمال، هي كنوز الدنيا، الساحر أقر بكل سحره أمام مساعده الوفي الأعمى؛ ألن تُخرجين لي سر سحر عينيك يا فاتنة؟ طبيب مُخضرم درس لمئات الأطباء الصغار؛ لم يستطع معرفة نوع عينيك! حائط يستطيع حمل مئات الأطنان؛ ولم يستطع مقاومة دمعة واحدة منك، سأنتظرك» حتى تحولت لـ (خيال مآتة) لكثرة انتظاري، لأن الأساطير القديمة تقول أنهم عبارة عن رجال انتظروا أحبتهم سنين طويلة.. وأنتِ حبيبتي الوحيدة في قلبي، كُل كلامي مجرد تهدئة لغليان الحبر داخل القلم؛ أفعالي تدل على غليان قلبي داخل محراب صدري، الوحيدة الساكتة في ضوضاء المدينة، مدينة لا تنام، ضوضاء طيلة اليوم، إلا أنتِ صمتك قاتل.. مثل سكينٍ حاد يقتل كل قاتل، ويقتص لكل ذي حق، لا شيء جيد في نومة المدينة.. لكن نومك يريح قدمي من السير وصولًا لقلبك من خلايا عقلك، هل أصف جمالك؟ الله لم يهبه سوى لكِ، هل أصف عينيكِ؟ نور التائهين أمثالي أصف.. روحك؟ ملائكية لا يتخللها بشرية.. جسدك؟ لؤلؤ مُخبأ في ذيل فستانك.. يدك؟ عُكاز من أفقده الزمن عُكازه.. صوتك؟ كُل البحور الشعرية لا تكفي وصف نقطة منه يا صاحبة الطلة الجميلة، الهيمنة المشروعة، السرقة الحلال؛ يا صاحبة الصاحب، يا جَامعة الخير، يا سارقة النوم، سكن المشردين، ضماد الجروح، ماء زمزم لظمآن! يا دافئة الإحساس على قطٍّ يرتعد، الجمال المُبهر، كُل الأصوات في أذني صوتك، هل هو جنون أم الأشياء من حولي تحاول تقليدك؟ يا من تملكين الكون داخل يدك الصغيرة، يا قمر المسافر على طريقٍ مُظلم، هل تَذكرين القمر عندما سار معنا حين طفولتنا؟ إنه طلتك على الأرض! هل

تبكين عند سماع أنين قطة تائهة عن أمها؟ تِلك ليست قطة.. ذلك أنا عندما تغيبين عني، يا ذات الرداء الوردي، يا ذات القمر الفضي، يا صُحبة الليل الحزين، يا مشاركة الصمت في كلامه، يا عظيمة الشأن والكيان ولا يعلو عليكِ فتاة، يا من يصرخ الكون باسمها لرب الأكوان لحمايتها، ظلك المجاور لجسدك حبيب يتلصص على جمالك أملًا في نظرةٍ ملساء مِنك، حينما تنظرين إلى شيءٍ يتحول جميلًا مثلك، الأشياء جميعها تتمنى وجودك، عصفورة محبوسة سألت يومًا السجان: ما معنى الحرية؟ أجاب: النظر إلى عينيكِ.. ما العيد؟ (العيدية) التي يعطيها الأب لابنته لتشتري حلوى ليلة العيد، صلاة عيد يصليها الجميع، الشوارع سعيدة بالحلوى، (أكشاك) الفقراء تعمل، السماء مبتسمة، الأرض سعيدة، الحوانيت تزغرد، مهلًا.. كنت أصف العيد؛ لماذا تبدل الوصف عليكِ؟! يقولون عني: نشال كلمات.. ماذا عن عينيكِ اللتين تسرقان التركيز يوميًّا؟! يقولون: الليل سارق الساعات.. ماذا عن وجودك داخل حياة بائس؟ الإحساس بكِ في الحياة لا يضاهيه أحساس يا مولاتي.. هل تعلمين أنني تركت العمل وأصبحت ساحرًا؟ ساحر يعرف مواعيد حياتك وما يجعلك سعيدة ويفعله، ساحر يحترم سواكِ دون الجميع، ساحر أعمى لا يرى إلا يدك، نجاحك المعنوي مُهم لي كما لكِ، الرقة خُلقت لتكتب عليها اسمك، كل يوم هو نجاح لكِ.. هل تصدقين أنني ضربت عقرب الساعة بيدي لأجعله يقف عند رؤيتك؟.. لكنه رفض وتحرك سريعًا تجاه ساعات الليل الحزينة.. لأنك لن تشاركيني وحدتي بها، كُنتِ على مقاس عينيّ بالضبط.. لا أصغر ولا أكبر، لا منك تقعين ولا منك تختفين.. أصبح حجم عينيّ كحجم الشمس، النساءُ نوعان؛ نوع تجدها في كُل النساء، ونوع تجد كل النساء فيها، أنتِ تتفوقين على الاثنين! وجودك مهم لي.. العالم لم يخلق منك سوى واحدة.. هو ذكي، حتى لا يتنافس عليكِ المتنافسين.

((إيزابيل))

اتكأت على سريرٍ آخر مغاير لما اعتدته منذ أن وطأت قدماي القاهرة، تم منعي (مؤقتًا) من ذهابي إلى منزلي بالسيدة زينب، الشاهد على عشقي لـ آدم يحوي بداخله لحظات شهقت فيها من الفرحة، البكاء، اللذة، ولأول مرة أصبح بهذا الصدق مع أحدهم، عارية لكن ليس بجسدي فحسب، تعرت روحي أمامه، فقدت السيطرة، خرجت عن هويتي وأسقطت أقنعة الرضا عن حالي، وهذا لم يحدث منذ ذهاب أمي..

لم أتغير لكني استنبطت ذاتي الحقيقية، تُظهر الفراشة ألوانها وتُفصح عنها حين تحلق عاليًا مرفرفة بأجنحتها، تلتفت لجمالها رغمًا عنك، هكذا أنا، أحيا بالحرية وآدم أرضي الحرة، ملاذي الآمن الذي أهرول إليه، جنودي التي تتصدى لكل من تسول له نفسه الاقتراب من أي حبة رملٍ ببيدائه، درعي الحامي، جيش مُعد لي، دياري، فهل يمكن الشعور بالغربة بديارك؟!

عيناه نافذتي، تضمني وقت غروب الشمس، مثل لفحة هواءٍ تستنشق هواءها روحك قبل أنفك ورئتيك.

صوته هو الهدوء الذي تفتقر إليه خارج البيت، السكينة الممزوجة بألحانٍ أعذب من صوت الكروان، يداعب بشرتي وتتسلل إلي خلسة القشعريرة عندما يغرد بكلمة (أحبك).

عناقه كسريرك حين يحتضنك بعد طول غياب، أغوص بالنوم فيه، رقيق بخشونة رجلٍ شرقي، تمتزج روحي بروحه، يختصر كلماتي وحروفي تارة، ويعانقني بكلمةٍ تارة أخرى!

شفتاه، فاكهة طازجة نضجت قبل الأوان، وكنت أنا من أحصدها.

فـؤاده هـو الجـدار، لـولاه يلتصـق البيـت بـالأرض ويتفتـت، عمـود أسـاسي لا يمكـن الاسـتغناء عنـه، بـل عمـودي الفقـري، لـولا وجـوده أُقهـر، أنكـسر وأميـل!

وجـوده فرحـة عارمـة هلـت كسـعادة أمٍّ أنجبـت طفلهـا الأول، كفرحـة ثائـرٍ أرهقـه القمـع والظلـم، فانتفـض ليسـتجيبوا لـه ويصبـح صوتـه مسـموعًا ومؤثـرًا.

كشجرةٍ مر عليها سنوات عجاف في أرض بور ثم بغتة هطل عليها المطر.

كمغفرة الإله لعبده المذنب.

كمريم العذراء التي كرمها الله، كرمني إلهي بحبه.

بـات يـسري بدمائـي أسرع مـن فهـدٍ يعـدو خلـف فريسـته ليوقـع بهـا بعـد أيـامٍ مـن الجـوع.

غيابـه أثقـل عـلى قلبـي مـن الخيـل، يـؤلم كلدغـة الأفعـى، يسـحب أنفاسـيي ببـطءٍ مثـل شـخصٍ سـقط في المـاء لا يفقـه السـباحة، فباتـت نبضاتـه تتسـارع، ترتعـش أطرافـه، لتخذلـه رئتـاه ويمـوت غريقًـا..

هو كُل الرجال، وكل الرجال هو.

شـاه شـارف شُرفتـي فأشرقـت شـمس شـوارع قلبـي مهللة، وسـقطت شـفتاي شـهيدتي شظية شـاربه وشـارته.

أتمنـى أن تعانقـك حـروف رسـالتي وتؤنـس وحدتـك، أو تنـير عتمتـك يـا عزيـزي آدم.. شرد عقـلي كثـيرًا واسـترجعت ذكريـاتي ببلـدي فرنسـا بحنـينٍ غمـر كل ثغـرة بي..

سـن مُراهقتـي شـهد حُبـي الأول.. (لويـس) أغرمـت بـه رغـم كونـه مواطنًـا عاديًـا وليـس مـن طبقتـي الأرسـتقراطية، رآني في باريـس، كنـت أبتـاع فسـتانًا ثمينًـا مـن أحـد المحـال الراقيـة، راقبنـي وبـات يحـدق بي، لم أعـره اهتمامًـا

وتجاهلته على الرغم من أنني شعرت عكس ذلك، أردت إطالة النظر إليه لكني لم أفعل.. خطوت رافعةً رأسي، فمهما حدث، بي عرق برجوازي ورثته عن أجدادي، اقتربت من عربتي المكشوفة نسبيًّا، وضعت أغراضي وأمرت السائق بالتحرك؛ رمقني ورمقتني الأحصنة القاطرة للعربة، وكأنهم يعلمون سري الصغير الذي أخفيه عن قاطني القصر ثم رفع السائق يده لتحيتي.

بعد عودتي إلى قصري (قصر ماتينون) أردت إعادة تنظيم خزانتي، فأنا لا أحب أن يفعل الخدم ذلك، لديهم مهام أكثر أهمية، عثرت على ورقة صغيرة بحجم الإصبع، كُتب عليها بخطٍّ فرنسي..

«ربما بيننا اختلاف طبقي لكن عيناكِ أرادت محادثتي، سأكون في انتظاركِ غدًا يا جميلتي حتى أعرف اسمك (لويس)»

تلون خدي بلون الفراولة فور قراءتي كلماته، دق قلبي مُحدثًا ضجيجًا بروحي وعقلي..

مَن منا في ريعان شبابه ومراهقته كان عاقلًا؟! حتى وإن كان يحيط بي آنذاك العديد من الملوك والكثير ممن لقبوا بلقب الدوق.. على أي حال، لم تطرف لي عين ولم أكترث، ذهبت لمقابلته..

باريس/ شارع الشانزليزية

طلبت من السائق ألا ينتظرني ويعود ليقلني بعد ساعتين.

ارتديت فستانًا أسودًا يبرز جسدي لكنه مُحتشم ذا كُمين، مزينًا بورودٍ خضراء من الأمام، شعر مرفوع لأعلى يتساقط منه بعض الخصلات، مغطى بقبعة، قفاز في يدي الناعمتين.

- هل تحبين حِساء ((soup du jour))؟
- كثيرًا، من أين علمت ذلك؟

- لا أعلم، مجرد إحساس، أو ربما لأنني أحبه.

سار بي إلى المطعم، لم يتفوه بكلمةٍ أثناء الطريق لكن كانت تلك أمتع مرات تجوالي، سرت دون حرس أو قيود.

المباني رملية اللون، حجرية الشكل، الشرفات بلون البحر، متناغمة مثل الرسام الذي يدبج لوحة بدقة.

يقع تحت كُل نافذة منهم زرع أخضر صغير، في منتصفه ورود حمراء معطرة برائحة فرنسية تتغلغل أنفي.

أشجار من يساري وأخرى من يميني، مرتفعة وكثيفة بديعة الخضار، أحيانًا تتحول إلى البنفسجي في الخريف، العشاق يسيرون متشابكة أيديهم وآخرون تتقابل شفاههم في العامة، أما عن لويس فكان مُرتبكًا، لكن يخطو بثقة، يرتدي بنطالًا بنيًّا فاتحًا، وقميصًا باللون نفسه، تحته ياقة قميص بيضاء، وسترة بنية لكن بدرجة غامقة ممزوجة بتدريجات تتناسق مع باقي ملابسه وجسده النحيل.

- وصلنا يا سيدتي، تفضلي بالجلوس.

قالها لويس بينما يجذب الكرسي الخشبي تجاهه مشيرًا لي بالجلوس.

- إذًا يا إيزابيل.. أليس هذا اسمك؟!

تعجبت من سؤاله وقتها، لكنه أخبرني فيما بعد أنه عرف اسمي حين نعتني به سائقي الخاص، وجهه طفولي لكن عينيه يملأهما التحدي، مفعم بالطاقة دائمًا، أعجبني ذلك به، وكان هذا اللقاء الأول، حياته عادية، يمتلك أبواه مخبزًا صغيرًا بالبلدة بينما يزرع هو سنابل القمح..

«إن أردتِ تذوق خبزٍ فرنسيٍّ ساخن طازج لا يُنسى سأكون بانتظارك.»

لم يرفض قلبي طلبه وذهبت..

المخبز يقرب من منزله، بدا البيت بسيطًا مصنوعًا من الخشب، طابق واحد، يطل على بحيرةٍ كبيرة والكثير من الخضرة، بيت ملائم لبلدته الفقيرة، أتى من خلفي حاملًا الخبز وقدمه لي قائلًا: «طازج مثل شفاهك.»

تبسمت خجلًا، لمعت عيناه الزرقاوان وبات يقص علي حياته رويدًا رويدًا، جمعت بيننا عدة صفات مشتركة، انتابني السرور، ودق قلب إيزابيل العذراء بالحب..

ثم استطرد قائلًا:

- ما رأيك بالمسيرة النسائية التي اتجهت إلى قصر فيرساي (١)؟ هل علمت بهذا من الأساس؟

- نعم، أعتقد أنه...

قاطعني قائلًا:

- لا يوجد ما يسمى (أعتقد).. هل هبطت قدماكِ المدللتان إلى الريف قبل هذا اليوم آنستي؟ لا أظن، الناس هنا لا تنعم بما تنعمين به، تلهث كالكلاب طوال النهار من أجل توفير الطعام والمأوى، تفاوت طبقي واضح سيدتي، الآن يمكنك الإجابة.

ابتلعت ريقي ثم قلت:

- إنهم على حق.

صمت برهة ثم أردفت قائلة:

- لكن لماذا تخبرني بذلك الآن؟ هل تطمح بوظيفة في أحد القصور؟

قهقه حتى دمعت عيناه..

- لا، لكن أمي كانت من هؤلاء النسوة، اعتدى عليها أحد الجنود

الأغبيـاء بالـضرب.

- آسفة لذلك.

قلتها ممسكة بيديه.

- لا عليكِ، هل تحبين الرقص؟
- أجل.

(١) تعتبر من أكثر الأحداث الأكثر تأثيرًا في الثورة الفرنسية ١٧٩٩-١٧٨٩

التقط (تشيللو) احتضنه بين قدميه، وبات يعزف عليه موسيقى ((Clair de lune))

قائلًا:

- سرقه أخي الأصغر من أحد الأغنياء لأنه يعشق الآلات الموسيقية ثم نهرته ليعلمني اللعب على تلك الآلة، ومنذ ذلك الوقت ونحن و(التشيللو) أصدقاء.

قهقهت وتركت جسدي يتمايل بحريةٍ على ألحانه التي تسللت إلى قلبي وكأنني لأول مرة أسمعها..

اقتربت منه وجلست، حينها مال برأسه نحوي وقبلني، أول قبلة..

- يبدو أنني أحببتكِ.
- وأنا كذلك، أنت وسيم، وتعجبني شخصيتك.
- لكنها خطيئة، كيف يمكن يا فتاة القصر؟!
- لا، أنا فقط إيزابيل.. أنتمي إليك الآن يا لويس مثل الأسماك في الماء، لا أريد الخروج من محيطك.

ضمني وظللت معه نتبادل أطراف الحديث، ويدوي صدى ضربات قلبينا عنان السماء.

- لن أفارقك يا إيزابيل.. سأظل معك دائمًا.

أطل علينا الشفق بينما أميل على كتفه اليسرى في دلال..

ذلك كان من أجمل أيام حياتي، التي ستحيا بداخلي للأبد..

تعددت اللقاء؛ في باريس تارة وبالريف تارة أخرى، أحبني والداه وأنا أيضًا أحببتهم..

- شعرنا أنكِ تشبهينا حتى وإن كنتِ لست كذلك.

أخبراني عن سر تسميتها (لويس)..

- أردنا أن يولد ملكًا.. لكنه لا يشبه الحقيقي بشيءٍ حتى ظله!

كل شيءٍ كان مثاليًّا، حتى اشتعل فتيل الثورة..

اقتحام سجن (الباستيل).

استيقظت في هذا اليوم على الكثير من الهمهمات داخل قصري، صوت أقدام الحرس وحالة الشغب التي ذُكرت أمامي، أوامر يتلقاها الحراس، وغضب عارم من كُل القاطنين في القصر، تم منعي من المغادرة، شعرت بالقلق حيال لويس..

- سيدي قُتل أكثر من جندي يحرس السجن، وهناك أناس تحاول دخول القصر لكننا نتصدى لهم.

التقط أبي هذه الكلمات على مضض، وضغط على أسنانه بغضبٍ قائلًا:

- كلاب الخبز تنبح، أغبياء! سأقضي على أمثالكم.

بعد مداهمة الثوار للمستشفى العسكري من أجل الحصول على السلاح، وجدوه فارغًا، فتم اقتحام سجن الباستيل لإحياء تِلك القطع الحديدية التي بدورها ستمزق شرايين آلاف الجنود الفرنسيين؛ لم يكتفوا بهذا قط، بل اقتحموا قصر الملك، لم يعد أحد يهاب شيئًا، الكلمة العليا للحرية، المساواة، الإخاء، ومن هُنا عم الخراب.

اقتنصت فرصة انشغالهم بدخول عامة الناس للقصر، هربت باحثةً عن لويس المتعطش للحرية..

رائحة البارود ملأت أرجاء المكان، قتلى وجرحى والكثير من الهرج والمرج، الثورة ليست للفقراء فحسب، بل للمدنيين وبعض رجال الكنائس والجنود الذين شكلوا الجمعية الوطنية.

أسير في بركة من الدم، سياسيًّا كُنت أم رجل دين، مدنيًّا أم أحد النبلاء، تنتمي للچاكبونز أو الفقراء، المقصلة لم ترحم أو تُميز أحدًا، كانت تسقط بنعومة موجة تعرف مسارها، فتستهدف العنق لتفوح رائحة كُل ظالم ومظلوم، ففي هذه اللحظة فقط، تنكشف وتتعرى حقيقتك، فيشفقً عليك حديد المقصلة الحاد فاصلًا رأسك عن جسدك في طرفة عين، أظن أنها كانت أشد قسوة على الملك، لم تترك له فرصة غلق مقلتيه، تركتهما تشاهدان العامة أثناء البصق عليه! الجميع يبحث عن المساواة والعدل الغائبين عن بلادي..

ارتدى أولئك الجنود زيًّا ملونًا بالأحمر والأبيض والأزرق، ورفع بعض الثوار أعلام باللون نفسه.

هرولت أدقق بمقلتي في المارة باحثةً عنه..

أين أنت يا لويس؟.. أعلم أنك هنا، لطالما حلمت بذلك.

صرخت باسمه وبات صوتي كصوت فأرٍ صغير لا يسمع أنينه أحد.

طال التنقيب عنه، ارتعبت من الدماء التي تحيط بي.. ثم سمعته يناديني.. ارتميت بين أحضانه أتفحصه جيدًا..

- هل أنت بخير؟ هل أصابك مكروه؟!

أومأ نافيًا وقال:

- هذه هي البداية يا إيزابيل.. الحرية والعدل يتحدثان الآن!

- أصبت، لكن يجب علينا الذهاب..

لم أستطع أن أُكمل الجملة، اخترق رمح جسد لويس الذي بين ذراعي!

ذُهلت، شُلت حركتي وانهمرت دموعي التي باتت تسقط على وجهه، تحسس رقبتي قائلًا:

- هذا أفضل مما تمنيت، أن أموت حرًّا وحبيبتي تحتضنني، بدلًا من تلك الدموع، أود رؤية ابتسامتك التي سحرتني

((Mademoiselle)).. أستطيع مراهنتك أن كل شيءٍ سيتغير بعد هذه اللحظة، سيكون هناك عيد واحتفالية لهذه الانتفاضة، ربما يطلق عليه عيد الحرية أو ربما عيد المهمشين مثلي، ارحلي يا إيزابيل.. موعد هلاكي قد آن، سيأتي الحرس عما قريب.. لكن العشق الذي وهبتني إياه، جعلني المهمش الأكثر حظًّا على أرض باريس.

بكيت أكثر..

- لا تودعني، أنت وعدتني أنك ستظل معي دائما.
- لم أخلف وعدي، ستتذكرينني أينما كنتِ، لن تموتي اليوم، ولن أموت بداخلكِ.

ثم ردد تلك الأبيات:

كم من أشواك الحب، يرافق وروده! يا له من خطأ قاتل!

تركت كل الأشياء تحت رحمة القدر! أن تزدهر بحق ونحن ننتحب!

من الصعب العيش في ربوعك، دون الرغبة في الموت!

---

(١) قصيدة للشاعر الفرنسي/ فرانسو دي ماليرب وقت الثورة.

رمق الناس وابتسم ثم نظر إلى عينيّ وأكمل قائلًا:

هذه هي الطريقة التي أعيش بها هذا ما أقوم به

لحبٍّ، أريد له الدوام

ما وراء الموت.

الكل يصب اللوم في أذني

ومن يريد أن يبتليني، يجب أن ينصحني لا يكدرني.

أنا أقول ذلك، إنه في النهاية كل شيءٍ يتغير،

ومع الوقت، العينان الجميلتان لملاكي

سوف تعود لتبصرني.

ذرف الدمع من عينيه الفيروزيتين تمامًا مثل الموج..

- أحبك يا إيزابيل.

خارت قواه وسالت دماؤه، كيف يمكن للمرء أن يودع حبيبه بهذه الطريقة؟! داويت آلامي لكني وقفت عاجزة عن التئام جروحك لتغيب عني للأبد..

جذب كلاب الملك الأوفياء قدمي لويس مُنتشلين إياه مني، حاولت منعهم لكنهم هددوني إذا لم أفلته سأكون التالية، لطخت دماؤه الرمال، تاركًا أثرًا لا يُنسى.. تم فصل رأسه عن جسده بمقصلةٍ حديديةٍ باترة غليظة، يُذبح بها مئات ممن يعارضون حكم الملك.

رحل حبي الأول، كان لويس شجاعًا ومحاربًا، لا ينجرف للتيار، اختلس لحظاته من القدر عمدًا، استحق محبتي، استحق كل شيء، ليته شهد ما حدث بعدها..

أعدم (لويس الخامس عشر) أمام الجميع وحرم حتى من إلقاء كلمته الأخيرة بسبب الحشود التي باتت تنعته.

تغيرت الألقاب وأصبح هناك (سيتوين) أي مواطن دون تكاليف الألقاب العقيمة كلقب (الدوق).

أصبح اليوم الذي هجرتني به عيدًا.. كنت مُحقًّا، هذا حدث لأجلك يا لويس.. لأجل روحك الملائكية التي أراهن أنها ترفرف الآن من السعادة.. ارقد في سلام، السلام خُلق لنقاء روحك.

أما عني، فقلبي بات يشبه كنيسة القديس دينيس، أصبح مقبرة لأحبابي وكل من تعلقت بهم وسرقهم الموت، هُدمت الكنيسة بمقابرها أثناء الثورة، لكن مقبرة قلبي ظلت صامدة شامخة، حاضنة ذكرياتي، أمي.. لويس.. ألم فراقهما ينهش فؤادي، ظلا معي مهما ابتعدت أو افترقت طرقاتي..

تنفست الصعداء، يا لها من جرعةٍ كبيرة من الذكريات! هكذا هي الحياة، تبتسم لك ثم تصفعك لتُلصِق وجهك بالرمال والوحل، مطالبةً إياك النهوض والاستمرار من جديد..

بعد أن سكن آدم فؤادي، لن أسمح أن تصيبه لعنتي التي أصبها على من أحب، مقبرة قلبي لن تُدفن داخلها مطلقًا!

((آدم))

مـرة أخـرى، يقتحـم عـليّ أحدهـم حبـسي الانفـرادي، في الزنزانـة التـي لا يدخلهـا شـمسٌ أو هـواءٌ كافٍ، هـذه المـرة وليـام ملامحـه الجامـدة الصفـراء لا تُنسـى.

وقـف أمامـي بيـده عصـا حديديـة رفيعـة طويلـة، بيـد كل صاحـب مكانـة مرموقـة مـن آل فرنسـيس.

وقـف باسـطًا قامتـه بابتسـامةٍ صفـراء بـاردة، تظهـر معهـا أسـنانه، رمقنـي بينـما كنـت في حـالٍ لا يُرثَـى لـه.

- بلدكم فقيرة يا آدم.
- لماذا جئتم إذًا؟
- سنغنيكم.

ابتسمت ثم قُلت:

الله الغنـي؛ الشـيخ الـذي علمكـم اللغـة العربيـة في السـفن ممتـاز، لغتـك صحيحـة.

مثلما تقولون: «من عاشر القوم، أو من ضاجع القوم.»

أما زلت تقابل عائشة؟ هنيئًا لك يا ويليام.

اسمي السير ويليام.

قالها مكشرًا عن أنيابه.

- وليام.. السير ويليام.. لا فرق! المهم أنك حر وأنا حبيس.

- من أجل غناء ما تسمونه مواويل الحرية.
- سنغنيها بعد رحيلكم.
- أحقًّا ترون أنفسكم أذكى منا؟
- ذلك سؤال أم معلومة؟
- غرناطة سقطت، المماليك سقطوا، الخلافة الإسلامية سقطت، كل دولة إسلامية تسقط تباعًا، أنتم كذلك!
- مصر لن تسقط!
- جميعهم قالوا ذلك!
- جميعهم ليسوا مصر!
- أنتم شعب جاهل، فقير، خائن، ذليل، ضعيف.. لا تفقهون شيئًا!
- وأنتم لا تفقهون قولًا، تعثون في الأرضِ فسادًا، وتنشرون الفجور!
- الشعوب العربية جميعها تظن نفسها عظيمة، وأنتم خدم، نحنُ أسياد العالم.
- ما أخبار حرب المئة عام؟
- جاهل، أحدثه عن الحاضر يحدثني عن الماضي.
- يومًا ما كان البربر يجعلكم تشهقون خوفًا، والأيام القادمة، أي جيش منظم قادر على دحضكم من الخرائط.
- لا جيش يقوى علينا! نحن العالم، والعالم نحن.
- أتعلم أني أملك القدرة على التنبؤ بالمستقبل؟.. السناري قام بتعليمي.

- وما المستقبل سوانا؟
- ألمانيا، الصين، أمريكا.
- لن يقدر علينا أحدهم!
- الأعمار بيد الله يا وليام.
- تبًّا لأي إله، أنا الإله!
- وهل الإله لا يستطيع جعل فتاة تقع في غرامه؟

لف جسده، وأعطاني ظهره ثم قال بعد لحظات تفكير:

- إيزابيل.. أيضًا إله!
- يا رجل.. دعك من كلام الإغريق هذا، فلكل شخصٍ إله، ولكل إلهٍ شخص.

خرج من الزنزانة يتأفف، ويسبني بالفرنسية.

وأنا أيضًا سببته... بالمصرية.

((إيزابيل))

اتجهت مُسرعة إلى مقر فيليب لأضع حدًّا، طفح كيلي ونفدت طاقتي، لن أقبل الخسارة، أريد استعادة حريتي؛ أنا وحبيبي آدم.. اعتدت العيش بأغلالٍ تحيط بي لأنني «ابنة الجنرال» خطواتي يجب أن تكون دقيقة ومحسوبة، بلا أخطاء، كتمثالٍ منحوت يركز في مكانه مُغطى بالتراب، تعلوه خيوط العنكبوت المنسوجة التي عفا عليها الزمن..

داهمت مقره بامتعاض، اخترقته نظراتي التي كادت تصرخ من أثر ما تحمله داخلها، تحملت كثيرًا وحوى قلبي أسرارًا جمة، أرهقت نفسي وتسببت في انطفائي، المرء منا يُقهر حين ينكسر من اعتاد الانحناء والاتكاء على كتفه، والأب خير دليل على الشعور بالأمان والرخاء.

في حالتي كان حنونًا بعض الشيء في طفولتي، لكن تحول الرفق واللين إلى البُغض والقسوة حين كشفت الستار عما كان يخفيه..

بنبرةٍ حادة بعض الشيء..

- لقد سئمت اعتراضك المُستمر لحياتي وسلبك لكل ما أُحب!

حينها ابتسم بمكرٍ ثم قال:

- لم أتعمد انتزاع ما أحببتِ يا إيزابيل.. لكنكِ دبرتِ لي مكيدة مع الصعلوق المصري، أنا أقلق حيالك، ألستِ ابنتي؟! إنه يغتنم فرصة وقوعكِ بحُبه كي تخسريني، وليس هذا فحسب، بل يسلب منكِ خدمة بلادك، أعظم ما صنع الرب!

قهقهت بصوتٍ مُحشرج يُبطن دمعي، أردفت بعدها محاولة التماسك:

- تقلق علي؟! وأين كان ذلك حين دعوتني[1] في المقام الأول لأُعاشر آدم من أجل مصالحك الشخصية مع قادتك العسكريين؟!

- لا تخلطي الأمور.

- نعم، أنا من يخلط الأمور الآن، صدقني لا يليق بك دور الأب، فأنت لم تتقنه يومًا، أصبح الأمر أشبه بعرضٍ مسرحي حضرته آلاف المرات حتى حفظت حركات ممثليه بدقة لأعيد مشاهدته مجددًا بتثاؤب.

- كُفي عن اتهامك الدائم لي بعدم المسؤولية! تشبهين والدتك في إلحاحها.

- من الجيد أني لم أكتسب الكثير من صفاتك، فأنا سوية يا أبي.

تلون وجهه حينها بألوانٍ متعددة، تصبب العرق من جبهته، وقال باقتضاب:

- ماذا تريدين؟!

- آدم.

ابتعدت عنه بعد مشادة كلامية حادة انتهت بتهديدي بقتله إذا مس آدم!

شوارع القاهرة مجددًا..

مررت أمام إحدى الحدائق العامة، كانت شاسعة وشديدة الخضار، ابتل طرف تنورتي بقطرات الماء المنتشرة على العُشب، استوقفتني إحدى السيدات الفرنسية تقف في منزلها الخاص، ربما في عقدها الرابع، تقف باستقامة، تحمل عُكازًا بيدها اليمنى، بياض خصلاتها كان شاهقًا، بجوارها فتاة وصبي، وعلى الجانب المُقابل يوجد مزارعون مصريون ذوو بشرة سمراء سببها أشعة الشمس.

تساءلت؛ تُرى كيف يعملون سويًّا؟ هل يمارس أحدهم السلطة على الآخر؟ وربما الآخر ينعته هو وأجداده، لا أدري! أثارني الفضول ثم سكنت في مكاني أنصت لما كانت تقوله هذه المرأة.

تحدثت عن الغداء، وكيف تمرضون أيها المصريون وأنتم تملكون الخضرة والليمون؟! بل ومن الخضروات ما لذ وطاب! وبأسعار بخسة مقارنة باللحوم، تحدثت بالكثير من اللباقة التي افتقدتها منذ أن غادرت وطني، وبدأت تروي عاداتها الغذائية، أو بمعنى أكثر صدقًا عاداتي أيضًا، فاهتمامنا الأكبر لكل ما هو أخضر.

ثم طلبت من أحد الرجال أن يزرع في جزءٍ من الأرض أعشابًا طبيعية أو نباتًا أخضرًا، وبالجزء الآخر ماء، وبدا لي أنهم تجمعهم أُلفة، ليست بصداقة بالطبع، لكن هُناك مسامرة ولين في التعامل ثم قالت:

- هل يمكنك أن تقص علي ما حدث لكل شق من الأرض؟

بدأ الرجل في سرد ما حدث قائلًا:

- شق الأعشاب التهمته الأرض بالكامل!
- ماذا عن الماء؟

- ابتلعت الأرض منتصف القربة فقط.

- أرأيت؟ الأرض تتسم بالذكاء، تعلم أنها تفتقر لغذاء الأعشاب الخضراء لذا ابتلعتها بالكامل، والماء، اكتفت بالقدر الذي تحتاجه فقط، إذا عدت بعد ساعة سترى أنها تشربت المُتبقي من الماء، مما يُفسر شيئًا واحدًا، كُن دومًا بذكاء الأرض في غذائك ولن يزور المرض جسدك أبدًا، لقن هذا الدرس لجميع شعبك ليبقوا دومًا أصحاء.

أثارتني الدهشة من عفوية هذه السيدة، افتخرت بكوني فرنسية بسببها، لم تبخل بعلمها، كان هناك الكثير منا، لم يبخل بمعلومات، تطوير، جهد، علم، تنفرج أساريري كُلما أصادف نماذج بهذا الشكل، شكل الإنسانية!

الرسائل المُحرمة

عزيـزي آدم.. في بُعـدك أصبـح العـذب مالحًـا، تتعطـش عينـاي لرؤيتـك ومـا مـن شـخصٍ يرويهـا، منسـية كالصحـراء التـي تنتظـر هطـول المطـر كُل عـام، لكنـي في عـام الجفـاف، ومعـدتي أصابهـا العِجـاف..

أعـدك بفـرج قريـب، وصـل بي الحـال لأن هـددت فيليـب بالقتـل مـن أجلـك، لا لـن أكـذبً ليـس فقـط لأجلـك.. بـل مـن أجـل كُل صفعـة خـذلانٍ هبطـت مـن جحيمـه عـلى أرضي لتصبـح دمـارًا.

ابـقَ صامـدًا ولا تحنـي رأسـك، فأنـت (باشـا ابـن باشـا) هكـذا نعتـك أهـل محـل سـكنك الأصـلي، نعـم.. أسـتطيع أيهـا النائـب، فلقـد أجريـت تحريـاتي وتقصيـت عنـك جيـدًا لأسـقط غريقـة في بحـر عِشـقك أكثـر حتـى أني لم أعـد أجيـد إحصـاء عُمـق حُبـك، فقـط غُصـت فيـه..

أنـا بجانبـك، سـأبعث لـك قبـلاتي مـع الألم، أحضـاني مـع الوحـدة، وصـوتي مـع الطيـور التـي تُغـرد مـع كُل صبـاحٍ تـشرق فيـه شـمس عينيـك.
أُحبك.

عزيزتي إيزابيل.. تصلني رسائلك من خلال صديقك القديم.. إيزابيل.. أنا الوحيد الذي أتعامل معاملات لا علاقة لها بأي إنسانية أو مراسم قتل أو دفن، أبوكِ مُصر على تعذيبي بشكلٍ مبالغ فيه، النوم على حجرٍ كبير والفراش رمال، الأكل يشبه الزقوم، والماء ساخن، يوميًّا يدخل هو أو ويليام لتهديدي، خصوصًا بعد هرب السناري من مخبئه برسالةٍ مني، وتحرك مراد إلى مخبأ آخر، يكبلونني ويحرضون عليّ الحرس بالضرب، يكيدون لي لأموت بشكلٍ طبيعي، إنهم يقتلونني ببطءٍ دون أي حساب، كُل من في الزنزانة حولي يتعاملون بطريقةٍ مختلفة.. ويليام يريد قتلي لأنني قمت باختطافكِ منه، وأبوكِ لا يفكر إلا في نفسه وفي مكانته عند (نابليون) في مصر وحكومة الإدارة في فرنسا، يبيعك بسهولة ويبيع شرفك وكيانك من أجل السلطة، هل صحيح أن (ديبوي) كافأه بقطعة الأرض التي كان يملكها السناري؟

سمعتهم يحتفلون بهذا، أنا مُكبل طيلة اليوم لكن قلبي معك لا يتوقف عن النبض؛ تساءلت كثيرًا.. ما الذي أحببتيه فيّ؟ وهل هذا حقيقي أم خيال؟ أوقات أشعر أنه خيال أو حلم يقظة لكني أفكر بكِ باستمرار، ولعل الغياب خيرًا.

إيزابيل.. لم أحب عائشة مثلما أحببتك..
«حافظي على نفسك من أجلي».

في الصباح التالي وخصوصًا بعد أن تلقيت رسالة آدم الأخيرة، استشطت غضبًا، انتاب قلبي غصة كانت كالسيف الحاد الذي اخترقه بدون شفقة، تألمت لألمه، نُكافح من أجل الإنسانية طوال الوقت، نحن دول الغرب، نلقن درسًا لمن يقترب من روح إنسان، وماذا اقترفنا بحق آدم؟ أهكذا تكون الآدمية؟!

مصطلحات كاذبة ضجرت رأسي منها لسنوات، سئمت العيش هكذا، تحملت كثيرًا وصبرت أكثر، طمحت في التغيير، كنت أرغب أن يسعد لرؤية سروري، يترك لي الشيء الوحيد الذي أعاد لي نفسي، نفسي المُلقاة في سلة النسيان لمدة لا بأس بها من الزمن، تقبلت الكثير وارتضيت لكن فيليب غاص في سياسته القذرة، باتت تسري في أوردته أسرع من فرقاطة فرنسية يجرفها الماء وتقلقلها الرياح، تكالب من أجل المنصب منذ أن كان ضابطًا في الجيش، نال ما أراد ولم يمنعه ذلك من ممارسة تسلطه وأنانيته بالمنزل، معاملة باردة لأمي كأنه يمقت وجودنا، ربما كُنا نُكمل الصورة العامة فقط، كمن يهتم بانضباط ملابسه وغلق أزرار قميصه وسحاب بنطاله بإحكام قبل الظهور على العامة.

دلفت إلى مكتبه مقطبة جبيني، أكاد أشعر بحرارة جسدي الساخنة من الامتعاض والحنق، قابضةً على كفيّ وأصابعي في محاولةٍ لكظم غيظي بداخلي..

- ألم أقل لك أطلق سراح آدم؟ دعه وشأنه!
- أنتِ لا تفهمين شيئًا، تعلمي عدم التفوه بكلماتٍ لا تفقهيها.
- أخبرني ماذا تفقه أنت؟! تفقه الخيانة وسلب السعادة من قلوب مَن حولك، تهوى أن تذبل زهورك أمام عينيك، تتلذذ بالأمر، أليس كذلك؟!
- ما الذي جاء بكِ إلى هُنا يا إيزابيل؟ أنا لا أملك الكثير من الوقت، لدي مهام لأقوم بها.. نابليون يلملم حقائبه وأمتعته،

سيترك مصر قريبًا وستغادرين معه.

- سحقًا لـ نابليون ولك ولجميع من وُلد على هذا الكوكب العريض، ألا تشعر بالخجل مني؟! إلى متى ستظل تتحكم بحياتي؟! أصبحت مثل الدمى، انتزعت مشاعري وألقيتُها في سلة القمامة الخاصة بك وحدك، أتغنج لرجالك الأثرياء أو ذي السلطة من أجل الحصول على معلومة، أين فطرتك تجاهي كابنتك أم غفلت عن هذا منذ فقدك لرجولتك تلك الليلة؟!

انفجر غضبًا وبصوتٍ غليظ كأنه هدير النهر في هيجانه ثم سحب (فردًا) من جيبه الأيسر طراز «سيمون بوليفار» أصبحت فوهته موجهة إلى رأسي مُباشرةً.

جلست ووضعت قدمًا فوق الأخرى قائلة:

- سأذكرك بأحداث تلك الليلة، من عيوب البشر أنهم ينسون خطاياهم.

فرنسا ١٧٩٢م منتصف الليل..

برد قارص يحتل أطرافي، لا أشعر بأناملي وأصابع قدميّ، حاولت مئات المرات النوم لكن باءت محاولاتي بالفشل، تململت على فراشي، ربما تتدفق الدماء لأوردتي أسرع قليلًا ويسكن الدفء قدميّ، كان حُضن أمي هو الحِمى، لذا قررت الذهاب إلى غرفتها بطفولةٍ لا تتناسب مع عُمر فتاةٍ مُراهقة مثلي، لكن يبقى المرء بجانب والدته طفلًا صغيرًا يافعًا حتى وإن أصبح كهلًا مُسِنًّا.

اقتربت بضع خطوات ورأيت انعكاس وجهها دائري الشكل بالمرآة، شقراء بخصلات شعرٍ حريرية ملونة بأفتح درجات اللون البني، خضار مُقلتيها يُكبل ويخدر الحواس، فقط تتمتع وتكتفي بمشاهدة عينيها دون كللٍ أو ملل؛ بدا على ملامحها العبوس والتجهم، تكبح الكثير من الدمع، خذلتها واحدة سقطت بغتة لتجففها فورًا عندما لاحظت وجودي.

ربتت على كتفي براحة يدها واحتضنت يدها الرقيقة وجنتي وذقني في حنان، تساءلت عن حالي باهتمامٍ كعادتها، غفلت برودة جسدي أمام الحيرة التي ألحظها عليها..

خرجت أمي من القصر خلسة في هذه الساعة المتأخرة من الليل، تعقبتها بعد أن عثرت على ورقة مطوية مُلقاة بجانب سريرها، تناولت كلماتها بعجلة

«زوجكِ يخونكِ اليوم، يجب أن تحني رأسك ويسقط كبرياؤكِ بعد هذه الليلة.»

وبأسفل الورقة ترك المُرسِل المجهول عنوان مكانٍ سمعت عنه من لويس.. قصر فاخر مخصص لارتكاب الفواحش والرذيلة..

انتابني القلق والارتياب..

أحقًّا سيفعل أبي ذلك بها؟!

ارتعشت يداي واضطربت خوفًا مما سنستقبله هُناك.

الأكثر شهرة على الإطلاق في باريس ((Le Chabanias)). (١)

دلفت أمي أولًا بسلاسةٍ ويسر ثم جاء دوري، تعمدت إبراز ثديي لأبدو ناضجة مثل الحاضرين والمترددين على ذاك القصر، اعترض طريقي الحارس ذو الجسم الضخم قائلًا:

- إلى أين أنتِ ذاهبة آنستي؟ على الأغلب أنتِ تحت السن القانوني الذي يقتضي لي السماح لكِ بالولوج للداخل.»

للحظات شعرت أنني في ورطة حقيقية، وقد بدأت قدماي تغوصا في الوحل، سينفضح أمري ويذهب مجهودي هباءً، تحليت بالثقة وبنبرةٍ مُتعالية مُتفاخرة قلت:

- أنا إيزابيل فيليب.. والدي بالداخل، وهو من استدعاني للقدوم، الأمر مهم.»

أومأ موافقًا ثم حنى ظهره قليلًا تجاهي مُعتذرًا ومشيرًا لي بالدخول.

إضاءة هائلة كأنني أسير بباحة في وضح النهار وليس مُنتصف الليل، الأرض شاسعة ولامعة، بإمكاني رؤية نفسي بها إذ وكأنها مرآة، العديد من النساء شبه عاريات، بعضهن يرتدين ملابس تُفصح عن مفاتنهن، والبعض الآخر اعتبرن ألا داعي لستر عورة الجزء الأعلى من جسدهن، ارتسمت البسمة على وجوههن، رمقتني إحداهن ثم أشارت إلى جسدي وأغلقت إحدى عينيها بحركةٍ سريعة، غمز ولمز على الملأ!

لهث الرجال خلف انحناء أجساد الفتيات المنحوتة والمُتعرجة، بعضهم لم ينتبه لوجودي من الأساس، كانوا سكارى من أثر الخمر، وربما القُبلات..

---

(١) قصر مخصص للطبقات الأرستقراطية لممارسة الرذيلة آنذاك.

استبقت وسارعت خطواتي لألحق بأمي، سرت طرقات طويلة مليئة بالغُرف المُرقمة، تجاهلت أصوات الضحكات المُتعالية الصادرة من بعض الغرف وتابعتُ السير، ما زلت لا أعلم كيف حصلت والدتي على رقم غرفة أبي! رأيتها تطرق الباب بيدٍ مُرتعشة، مكثتُ خلف أحد الجدران المجاورة للحجرات، وترقبت خلسة حتى فُتح الباب.

بقميصٍ قُرمزي اللون يشف شعر صدره، وجورب يشبه (الشبكة).. ملابس نسائية بحتة، قُبلة طُبعت على عُنقه تاركةً أثر أحمر شفاهٍ صارخ، هكذا كانت هيئة أبي..

ارتبك ولم يتفوه بحرفٍ واحد، رمقته أمي من أعلى إلى أسفل بشفقةٍ ولم تقل شيئًا هي الأخرى، حتى خرج رجل من الحجرة نفسها، يرتدي زيًّا مُشابهًا!

صُعقت من هول ما رأيت، تمنيت عدم فهمي للأمر، وددت أن تنشق الأرض وتبتلعني في أعمق درجاتها، لا، لا يمكن.. ربما هناك خطأ ما، أجهشت بالبكاء وأخفقت في كتم نحيبي وأنيني، انتبه فيليب لي، نظر إلى عينيّ دون التفوه بكلمة ثم صاح بأمي قائلًا:

- أجُننتِ؟! كيف أتيتِ إلى هُنا، أتراقبينني؟!

زمت أمي شفتيها بحسرةٍ وانكسارٍ لتعود أدراجها من حيث أتت، حدقت أنا بمقلتيه بتحدٍّ واستطردت قائلة:

- يا خيبة أملك يا باريس! مات جنرالك اليوم، في عين ابنته.

وقع الصدمة علي كان صارمًا كزلزالٍ يستهدف الأرض محدثًا تصدعًا وشقوقًا، تُهشم وتُفتت كل ذرة بي لكني تماسكت لأجلها، ضمتني بوهنٍ وبكت في هدوءٍ وصمت، ظلت هكذا لعدة أيام، تبدل تورد وجنتيها بشحوبٍ وانهزام، لم تعد كالسابق بدنيًّا، أهملت غذاءها، مرضت وأصاب عظامها الضمور.. لترحل للأبد تاركةً طفلتها وحيدة بدون حامٍ يظلل

عليها بأجنحته من غدر الزمان والبشر.. فقدتُ كل شيءٍ واعتلت حياتي سحابة سوداء حاملة معها الضباب، والدمع الثائر الذي ينهمر بلا توقف، والكثير من القهر والشجن..

اغرورقت عيناي بالدموع، فارت الدماء في عروقي، أمسكت بطرف تنورتي بضيق، رمقته بعينين غائرتين باحثةً عن الندم عما فعله، عن كسر القلب الوحيد الذي أحبه، أهكذا كافأتها؟ أضعت عُمرها وغمرتها بالأسى! يبسط عضلاته ويدوي صوته عندما يُحدثها ثم يتغنج ليلًا لرجلٍ كي يضاجعه! عار عليك، سيبقى وصمة خزي أبغضها، وشمي المصنوع الذي لا يُمكنني إزالته، غضاضة كُتبت علَّى اسمي الذي بكل أسفٍ وندمٍ يرتبط باسمه..

بوجهٍ ودم بارد، وقف مستقيمًا كالصنم، أطال النظر لي موجهًا فوهة سِلاحه إليَّ وجهي، لم تطرف له عين كأنني أقُص عليه حكاية لا تَمت له بِصلة!

- اقتلني الآن إذا أردت، فأنت لم تُحبني يومًا.
- لن أفعل، لستُ أنا السبب في موت والدتك، ومن أنتِ لتحاسبيني عما فعلت؟!
- أنا لا أود مُعاتبتك من الأساس، فأنت لا تشعر أبدًا وسأظل أبغضك مع كل نفسٍ أزفره، طوال أيامي التي حييتها مُنتظرة مِنك الحنو والعطف!
- مجيئك إلى الدنيا كان خطأً، مكيدة دبرتها هي، أنذرت والدتِك مئات المرات من الإنجاب، كنت أتعمد ألا أقترب منها لأنني لا أرغبها، وجودها كان ضروريًّا أمام العامة لذلك تزوجتها، وحين وُلدتِ انتابني الذعر، جال بخاطري فكرة التخلص منكِ حتى لا تكبرين وتعلمي حقيقتي.

- كم هو سهل بالنسبة لك أن تجعل فؤادي ينفطر!

هرولت دموعي إلى الهطول بحرقة تحرق قلبي، وبمرارة طعم أيامي تسلل الدمع إلى شفتيّ لأتذوق آلامي، ليتني لم أُولد حتى لا تسمع أذناي كلمات، يُحدث صداها تصدعًا بكل ثغرةٍ تقطنني..

حاولت التماسك وقُلتُ بصوتٍ مبحوح يعتريه الألم:

- إذًا لماذا أبقيتني حية ليومنا هذا؟ لا أظن أنها شفقة، ربما من أجل شكلك العام.

- لا، أحببتكِ وأحببت ذكاءكِ الموروث عني، خدمني جمالكِ أيضًا في الكثير من اتفاقياتي، لهذا لا تجعليني أقوم بأفعالٍ تتعارض مع ما أكنه لكِ من مشاعر.

ابتسمت ابتسامة خافتة وأردفت قائلة:

- إذا كانت هذه أسبابك لتُبقيني حية، لماذا لم تستأجر إحدى المومسات أو أحد رجالك الذين عاشرتهم؟! ستستفيد منهم في صفقاتك الحربية بدلًا مني.

نفرت عروقه من شدة الغضب، احمر وجهه غيظًا وتطاير الشرر مِن عينيه، ألقى سلاحه جانبًا ثم اقترب مني وضغط على رسغي وعنقي بقوةٍ قائلًا:

- طفح الكيل! هذه مُفاوضة خاسرة، انتهى الأمر، سيموت هذا المصري الأشعث، وستتزوجين بـ ويليام.. أنتِ تروقينه منذ مُراهقتك، ستسافرين إلى فرنسا مع الحملة المُغادرة، لا بد أن تنزعي من ذاكرتك المجيء إلى هذا البلد، للأبد.

لا، ليس مجددًا، كنتُ ضعيفة طيلة سنواتي الماضية لأنني لم أجد ما أعيش لأجله، رضيت بحياة الفاسقات لكن داخل القصر بين صفوة المُجتمع،

كنتُ أنتحر بجسدي وروحي من خلال هذه المعيشة، لن أعود إلى هُناك ولن أصبح قيد مُقايضة لأحد الرجال المُهمين حتى يرتضي ويوطد علاقته بـ فيليب.. سئمت قسوته وكل ما يتعلق بوجوده، مجيئي إلى مصر جعلني أتحول، بت أشعر بتغييرٍ كمن استبدل جلده ودماءه بل وأنفاسه، ألقيت وراء ظهري فراشي القديم، أصدقائي، والمُتبقي من عائلة أمي، لا أود العودة ولن أعود، شاء ذلك أم أبى، لا أشتهي أي شيءٍ يحمل عبقه، زواجي من مُختلٍّ مثل ويليام يعني تسجيل وفاتي، سماحي وقبولي يعني استسلامي، لن أخضع ثانيةً، انفجر بركاني وزاد غليانه، تعالى صوتي وصِحت مُهددةً إياه برفض جميع أوامره، أصر على رأيه وطلب استدعاء شخصٍ ليتخلص من آدم على الفور، زاد بركان غضبي توهجًا، أمسكت رقبته بحنقٍ مُحاولةً خنقه لكني فشلت، خذلتني عضلاتي وارتجفت يداي، أفلت من بين أصابعي التي تركت أثرًا واضحًا، ظل يسعل لدقائق وسبني بأمي، أصبحت حمم بركاني الآن جاهزة، التقطتُ مُسدسه الذي وضع فوهته في جبهتي، بيدٍ أقل رجفة وجهته نحوه، رفع يديه لأعلى متوسلًا راكعًا، يريد شفاعتي، يأمل المغفرة، ليغفر لك الرب أو ليهلكك في الجحيم، أنا بشر ضرير، لا أعرف للسماح طريقًا! ضغطت على الزناد ليدوي صوت الطلقة في أرجاء الحجرة، وتعم رائحة البارود المكان، تسيل الدماء من فيليب.. لا أدري أين أصبته! لكن رؤيتي لدمائه، هدأت من روعي وبعثت السكينة لأوردتي الساخطة.

صببت كأسًا من النبيذ الفرنسي الفاخر، تجرعته بهدوءٍ بينما أرمق فيليب الذي يزفر آخر أنفاسه، أقتص لنفسي من كل ليلةٍ قضيتها في وهنٍ وشرود، استيقاظي من غفوتي على كوابيس لكن الآن انتهى كابوس عُمري، حلت لعنتي، وتم فك أصفادي.

((آدم))

كانت ليلة شتوية، الأمطار هادئة، البرد بسيط.

أنا نائم على الأرضِ دون غطاء، مجرد حجر ملفوف عليه ملاءة أنام عليها، سمعتُ ضوضاء في الخارج، يقولون: مات فيليب!

ارتعشتْ فرائصي..

- من مات؟
- يقولون قُتل.
- من قُتل؟

لحظات مليئة بالترقب، قضيتها بالصلاة! سجدتُ للصلاة، كأني لم أسجد يومًا، والدموع ترتعش.

فُتح الباب بقوة هزت جدران الزنزانة، دخل ويليام.. أحمر الوجه، أسود الملامح، غليظ اليد، باسطًا كتفيه، حركة أصابع هادئة.

أغلق الباب خلفه قائلًا:

- أقتلت فيليب؟

صفعني وضرب معدتي بقدمه، وقفت مرة أخرى، ضربني ثانيًا، تكومت أرضًا، أمر الحراس بالخروج، كبل يديّ دون قدميّ، بصق في وجهي قائلًا:

- أقتلته؟!

نسيت كل اللغات حينها إلا لغة الألم، خرجت مني (آه).. توجع صعب!

أوقفني أمامه مباشرةً، أمسك رقبتي، خنقني.. لم يردد سوى ثلاث كلمات:

- أقتلت فيليب؟!

بعد ربع ساعة من الضرب والإهانة.. قال:

- ما رأيك في صفقة؟ بُعدك عن إيزابيل في سبيل تبرئتك من قتل فيليب.

حين هممت بقول: «لم أقتل فيليب.»

قال: ستذهب إلى بيتك، وأرسل لك فتاة تضاجعها حين تزورك إيزابيل.

هكذا ينتهي الأمر.. إيزابيل تكره الخيانة.

وقفت ثم قُلت بنبرةٍ حادة:

- لم أقتل فيليب ولن أخون إيزابيل.
- قتلت فيليب وخُنت إيزابيل.. لا تظن نفسك بطلًا يا آدم.. لو لم تقتنع باتفاقي معك ستموت عفنًا هنا لأن قاتل فيليب.. إيزابيل! وعندما توافق على كلامي؛ أنتم الاثنان براءة.

بلل الخوف جسدي ماءً، شعرت بشهقاتٍ مكتومة تخرج من حنجرتي، عرق يملأ جبيني وأوردة جسدي بدلًا من الدماء! نطقت بهلع:

- إيزابيل قتلت فيليب!!

بصق على يده اليُمنى، ومدها أمامي:

- متفقين؟

- مُتفقين.

خرجتُ من الزنزانة المظلمة، الشمس توسطت كبد السماء، الأرض مُبللة، الأمطار رائحتها ما زالت تلفح الأنوف وتدغدغها، لا أعلم إن كان الجو باردًا أم ساخنًا! جسدي ساخن والسماء تُشير بالبرد.. أصدق من؟ جسدي أم السماء؟

دلفتُ إلى مسجد الحسين، المتسولون ينظرون إلى بعضهم البعض، زاد عددهم، الشعب نصفه يتسول، والنصف الآخر خائف، الحبوب شحيحة، البذور قليلة، الخوف كثير، الفرنجة يلعبون بـــ البلي مع الأطفال، يسرقونه، ويحفرون حفرًا في الأرض، يتكئون على الأرضِ بركبة ونصف، ويضربون (البلية) بأيديهم.. كرة شراب فرنسي تُلقى يمينًا ويسارًا.. حصان ينظر إلى العربجي يرجوه أن يرحمه ويشبع جوعه، والعربجي.. لا حول له ولا قوة.. رأيت كُل هذا بينما أخلع حذائي على باب المسجد، فارغًا.. ليس من عادته هذا الفراغ، اليوم السبت أم الأحد أم الثلاثاء؟ الساعة ظهرًا أم عصرًا أم ليلًا؟ الأم تُرضع وليدها، الطفل يجري وراء عنزة شاردة.. (العتال) يرفع الطوب على ظهره.. العربجي يتمنى الموت لحصانه ليرحمه الخالق، السقا لا يجد من يروي ظمأه، فالكُل ظمآن، والكل لا يجد الماء، والكل لا يجد قوت يومه ولا حتى قوت ساعته.

صرخت في منتصف المسجد:

- يا الله!!

رددت الحائط صوتي:

- الله.. الله.. الله.

لاحظتُ رجالًا يرتدون عباءات، يطرقون بأيديهم صدورهم، يرددون آيات من كتاب الله، يربطون كلمتيّ (الله، حي) بعد كلمة (آية).

دخلت وسطهم، لا أعلم لون ملابسي، ولا لون شعري، هل أنا نجس أم

طاهـر؟ دخلـت.. تركـت روحـي تتوسـط أرواحهـم.. الله.. حـي... الله.. حي. رائحة بخور تخترق أنفي، الله.. حي.. الله.. حي.

صرخ أكبرهم قائلًا:

عَرَفْـتُ الهَـوى مُـذ عَرَفْـتُ هـواك ... وأغْلَقْـتُ قَلْبـي عَـلىٰ مَنْ عَاداك

وقُمْـتُ أُناجِيـكَ يـا مَـن تَـرىٰ ... خَفايـا القُلُـوبِ ولَسْـنا نـراك

أحِبُـكَ حُبَـيْنِ حُـبَّ الهَـوىٰ ... وحُبًّـا لأنَـكَ أهْـلٌ لِـذَاك

فأمـا الـذي هُـوَ حُـبُّ الهَـوىٰ ... فَشُـغْلِي بذِكْـرِكَ عَمَّـنْ سِـواك

وأمّـا الـذي أنْـتَ أهـلٌ لَـهُ ... فَلَسْـتُ أرىٰ الكَـوْن حَتـىٰ أراك

فـلا الحَمْـدُ في ذا ولا ذاكَ لي ... ولكـنْ لـكَ الحَمْـدُ فِي ذا وذاك.

بكيـت.. بكيـت.. البـكاء شـفاء، الدمـع شـفاء، الـصراخ شـفاء.

جلس بجانبي مُسِن، لحيته بيضاء ناعمة كبيرة، يمسدها باستمرار، يبتسم فتبتسم معه، أسنانه كاملة، أنفه صغير دقيق، شعره لا يظهر من أسفل عمامته..

- أفطرت يا بُني؟
- لم آكل منذ يومين.
- وما علاقة الفطور بالطعام يا بُني؟! هل روحك انفطرت؟
- روحي مُنفطرة منذ سنواتٍ يا مولانا.
- مولانا!

ثم ابتسم وقال:

- قُم يا بُني.. قُم معي.

تحركت معه، طفل يتعلم المشي، كهل يستند على كتف حفيده.

قال بعد أن شرب الماء من (قُلة) على ثلاث مرات:

- يصنع الله انفطار القلوب ليضمها أقوى مما كانت، ابكِ يا بُني، ابكِ يا آدم!
- أتعرفني؟!
- ومن في قاهرة الفاطمي لا يعرف آدم؟!
- الله!
- الله يعرفك قبل خلقك، الحزن اختبارات من الله، الفرح من الله، السعادة من الله، ابنتك من الله.
- ابنتي!
- تشبه أمها.. الفرنسية!

((إيزابيل))

انتهيت من كأس النبيذ ثم خرجت مُترنحة، تخدرت حواسي لكن ليس من أثر الخمر بل مما اقترفته للتو..

خرجت إلى الشارع أرمق الناس، كم أريد احتضانهم الآن مُهللة! لقد حصلت على حريتي! لكن هل أصبحت قاتلة؟ لوثت يدي بدمه النجس، وماذا سيحدث لي بعد ذلك؟ أتوقع الكثير من الجلبة حيال قتل الجنرال؟ تُرى إذا فُضح أمري؛ هل سيكون مصيري الإعدام رميًا بالرصاص؟

لا أكترث لِما هو قادم، لن يكون أشد قسوة مما مضى.

أرى العامة يرتدون الملابس الشتوية لكني لا أشعر بالبرودة بل انتعش جسدي ودغدغ الهواء أنفي بلُطف، تنفست رئتاي كأنهما ولدا منذ دقائق، تحسست جوفي بأناملي تلك التي تحمل بين ثناياها وثغراتها طفلًا صغيرًا! أمتلك جزءًا منك يا آدم.. أغمرتني السعادة عندما تأكدت من وجود هذه الروح داخلي؟ شهقت لأنني تمنيته منك وحدك، يحمل عبيرك ويشبه صفاتك وحركاتك حتى وإن كانت فتاة، وكم أتمنى أن تكون، أريدها أن تتسم بملامحك وتسكنها روحك كما سكنتني.

آه يا صغيرتي، فلتغفري لي، لم أكن بهذا السوء لأقتل أبي، شره كان لا يُحتمل، ربما قتلته مرة لكنه قتلني آلاف المرات، عدد لا أستطيع حصره، إن مس قلبي إثم فهو أنني ابنته..

حركت راحة يدي حول معدتي، ابتسمت في سرورٍ وترقرق دمعي، نظرت إلى السماء أحدثها، أرتجل الأناشيد لأتغنى بها لأجلك.

حتى لو طال الليل يا صغيرتي؛ أعلم أن لعتمتِك نور

لا تحني ظهرك أو تنكسري في أراضي وطنك البور

أحشائي تعزف ترانيم تكوينك في جوفها وباقي الجسد أغوار

فبيتك جوفي، منه طعامك وشرابك لا يمكنني الإنكار

لكن قلبي يدق من أجلك، وكل دقة من قلبك تحثني على الاستمرار

سأنتظر قدومكِ لتغتسل روحي من دنسها الأكدر

أحببتك قبل أن أراكِ وكأنك شِقي الأيسر

أحبكِ يا صغيرتي والشاهد على حُبي، الله أكبر

قاطع ترتيلي صوت داعب أذنيّ وتسلل إلى قلبي، شاب ببنطالٍ بلونٍ أزرق و(بنجورة) لأكون أكثر دقة في وصفي، هي سترة رمادية طويلة من الخلف، خصلات شعرٍ ذهبية تُغطيها (برنيطة).. أنف معقوف وعينان فيروزيتان، يقف أمام صندوقٍ خشبيٍّ أسود يشبه الخزانة الصغيرة مُزركش بزخرفات خشبية وتتوسطه رسومات يدويه في إطارٍ بيضاوي، نُقش على جانبه الأيمن كلمة (منافيلا) وعلى الجانب الأيسر توجد عصا لتشغيل الموسيقى، حاملًا (البيانولا) على ظهره كمن ينثر سعادة الدنيا على العامة بكل حُب، لا تُفارقه الابتسامة بينما تتراقص قدماي على مُوسيقاه.. «عازف البيانولا» وكأنه أتى إلي كي تصغي ألحانه إلى حديثي الداخلي وضجيج عقلي، تمايلت بخفة الفراشات، بسطت ذراعيّ حتى بلغت أقصاهما، أكاد أرفرف وأطير، ربما ألمس السحب وأغوص فيها وفي أمطارها المحبوسة التي إذا شاء الله لها الهبوط لأهلكتنا.

كيف تستوعبين هذا الكم من الثقافات والجنسيات يا مصر؟ أتعجب لأمرك! تحتضنين الجميع حتى وإن كانوا أعداءك، كأمٍّ تُسامح وتغفر طوال الوقت بلا مُقابل.

ابتعدت بضع خطوات، وقعت عيناي على سيدةٍ ممتلئة بعض الشيء، ترتدي عباءة، يحيط خصرها ملاءة سوداء، رافعةً ذراعيها لأعلى كي تتملك من «القُفة» حتى لا تسقط وتتبعثر محتوياتها أرضًا.. (الدلالة) مهنتها توزيع الأغراض على السيدات بالمنازل حتى لا يضطررن للذهاب إلى السوق ليبتاعوا احتياجاتهم، أثار إعجابي كفاح النساء التي في مثل عمر هذه الدلالة.. أصابت التجاعيد بشرتها لكن ما زال قلبها في ريعان شبابه، ربتت على كتف طفلٍ صغير وظلت تواسيه حين رأته يبكي ثم جثت على ركبتيها وأعطته حَلوى، لم تأخذ منه مقابلًا سوى ضحكة!

أود لطفلتي الترعرع هنا، لم أتأكد بعد من جنس مولودي لكني أشعر أنها أنثى، لقد احتواني هذا البلد على الرغم من أنني كنت عدوه الأول، وهبني أكثر رجاله شجاعة، بكيت وانتابتني قشعريرة سَرت إلي ببطءٍ مع لفحة هواءٍ جعلتني أشعر ببرد الشتاء، جلست القرفصاء على رصيفٍ من أرصفة حي السيدة زينب، حائرة مترددة، ماذا سأفعل يا الله؟ انجدني يا الله، هل سيموت طفلي قبل أن يولد؟ فيليب استحق الموت وطفلي يستحق العيش، لن أجعله يسلب مني ما أحب حتى بعد مماته، سأحارب لأجل عائلتي، هل قلت عائلتي؟! لأول مرة لا أصبح وحيدة، ولدي كياني الخاص، صراخ داخلي يؤرقني، ترتطم أفكاري بقلبي كي يتصدع، هل كُتب علي الشقاء؟

وجدتني دون أن أشعر أردد:

- الله أكبر.. لا إله إلا الله!

هدأ وجداني وأعلن عقلي هُدنة مؤقتة تمامًا كما وعدني آدم.. أغلقت عينيّ لمدةٍ لا بأس بها.

((آدم))

دخلتُ بيتي الصغير بعد شهرٍ ونصف بعيدًا عنه، نظر لي جندي فرنسي بينما قمت بفتح مشربيتي وابتسم ابتسامة مكر، بعد دقائق سمعتُ طرقًا ناعمًا على باب الشقة، فتحت.. رائحة عرقي مُشعة، دخلت فتاة ترتدي فستانًا أحمرًا قصيرًا وشعرها مربوطٌ برباط، ضَحكتْ ثم دخلتْ، فتحت سحاب فستانها، خلعته.

دخلت غرفة النوم، نامت على الفراش تداعب جسدها بنعومة، أشارت لي أن أقترب منها، وقفتُ مكاني، لم أتحرك، قامت مرة أخرى، جلست على ركبتيها أمامي، شدت بنطالي.

سمعت صوتًا من خلفي يقول:

- أرأيتِ يا إيزابيل؟ حبيب القلب يخونك!

بكت وهرولت خارج الشقة، سمعت صوت الكارتة يتحرك.. وضع ويليام يده على وجهي وقال:

- أحسنت، الفتاة لك لو أردت.

ثم خرج.

أشرتُ إلى الفتاة أن تخرج من الشقة دون كلمة.. خرجتْ.

خرجتُ وراءها.. نظرتُ إلى البيت بالكامل من أسفل، شعرتُ بدوارٍ غريب لم أشعر به من قبل، تذكرت أول مرة رأيتُ بها السناري، ومُراد بك، كُنت أبلغ من العمر عشرين عامًا، ضربني عربجي كارتة مُراد لأني لم أفسح له الطريق.. كُنت أعبر حاملًا صحفة كعك لوالدتي، صرخت، خرج مُراد من الكارتة قائلًا:

- من أنت يا ولد؟

تعارفنا، أعجب بشجاعتي وقوتي.. تدرجت في المسؤوليات حتى أصبحتُ أهم رؤوس مصر، كونت ثروة منهم؛ علاقات، قرأت كتبًا وروايات، العجيب أن آخر كتاب دخل عقلي اعترافات لجان جاك روسو! آه يا روسو آه!! خنتني ودخلت قواتك أرضي، جعلت مني مسخًا، جعلتني أبدو ضعيفًا مُستسلمًا أمام شخصٍ حقير!

تذكرتُ حين سكنت إيزابيل أمامي.. خاطبتُ زينة قائلًا:

- أعتقد أنها فتاة ناعمة.. من نظرة عينٍ مني ستقع في شباكي.

ووقعت أنا!

ظننتُ أنها فريسة.. وهي التي اصطادتني، توقعت أنها ضعيفة كسرت قلبي.

رأيتها أول مرة عن قرب بعد ثلاثة أيام من سكنها، فُستان مُطرز بالورود، ربطة شعر خفيفة، عطر خاطف لحاسة الشم، خطفت قلبي! زلزلت كياني! لا يا آدم لا.. بلدك يا آدم!! قلبك يا آدم!! خيانة عائشة يا آدم! قلبك المكسور يا ولد!! حُبك القديم!! كم مرة زنيت من أجل النسيان؟!! لا يا آدم لا!! لن تقع في الغرام مرة أخرى!! لا يا آدم.. أحببتها! نطقتُ بها.. أحببتها!

قادتني قدماي إلى المقهى.

طلبتُ من الصبي حجر نارجيلة وكوب قهوة، نار النارجيلة اقتحمت قلبي! آآه يا آدم.. أخبرتك ألا تقع في شباك الحب مرة أخرى! ولم تصدقني.. أحببتها! كارتة تمر في ظهرها كارتة.. وخلفهم كلب ثم قطة ثم حمار شارد، الساقي يُنادي، بائع طماطم يبيع بضاعته، بائعة النعناع والجرجير ترمي المياه عليهم، الحياة تسير بشكلها الروتيني.. بالنسبة لقلبي.. لماذا توقفت الحياة بالنسبة له؟

تجرعت القهوة ثم النارجيلة.. الحياة مؤلمة سواء حسبت أم لم أحسب.

هل يقبل قلبي البكاء كَحلٍّ لعذابه؟

هل يسامحني؟

هل يعيش مرة أخرى؟

آه يا آدم آه!

قادتني قدماي مرة أخرى إلى قبر أمي، ماتت حين كنت في السابعة من عمري، أملك من الأخوات.. أختين، أنا أكبرهم، أبي سكير، يتركنا أيامًا ويسأل عنا يومًا، تحركت نحو القبر، وقفت أمامه ثم بكيت، بلل الدمع وجهي ثم ملابسي،

هل سيصبح الوضع أفضل بوجود أمي؟

سؤال سألته لنفسي بعد خيانة عائشة.. بعد تعييني عند السناري.. بعد أشياء كثيرة، أمي.. كانت تبيع (الفجل والجرجير) أمام بيتنا الصغير، تضحك مع تلك، تبتسم لتلك، تعلم كُل خبايا البيوت، هذه يأخذ زوجها الجرجير لأنه يقويه على الفراش، وهذه تبتاع مني الفجل لعمل السلطة بجانب السمك الذي اصطاده زوجها، هذا، هذه، هؤلاء.. علمتني أمي كُل شيء، تأخذني بعد كل صلاة عصر إلى بيت شيخ الكُتّاب يُعلمني خاص، يُحفظني القرآن وحدي، نعم تدفع له قرشًا زائدًا شهريًّا، لكنها دومًا ترغب أن أصبح شيخًا كبيرًا مثله، لي مُريديني وطُلابي، أصبحت مثل أبي.. سكيرًا تائهًا في الشوارع، أشرب الخمر، أمارس الزنا.. آه يا أمي.. رحلتِ وتركتِ حملًا كبيرًا على كتفي، علمني أبي رحمه الله تدليك جسد الرجال بعد دعكه بالصابون المغربي، أنقع الليف في طست ماء الورود، أُخرج من الرجال الأتربة، أضحك كُلما صاح أحدهم قائلًا:

- عفارم عليك يا ولد.

كان عمري عشرة أعوام.. لم تعجبني تلك المهنة، مات أبي بعد سنواتٍ قليلة من رحيلك ثم تزوجت عائشة وأنتِ تعلمين البقية يا أمي بالتأكيد، أتنظرين لي من السماء؟!.. بالتأكيد تنظرين لي، فأنتِ نعم الأم، لم أتخيل لحظة حياتي بدونك، الجمال قال حين نظر لكِ: كنتُ أظن أني أحمل الصفة مع اسمي لكن الصفة ذهبت لها، والاسم لي.

وقال الدلال: من منكم يَدُلني على عنوانها؟

أجاب الجَمال: داخل عينيها، والرقة في ابتسامتها.

الكلاب تنهش في لحمي النيئ بعد رحيلك يا أمي! لا لم ينضج بعد، تركتني صغيرًا ضعيفًا مُهشمًا!

صفعني أبي مرات وركلني آلاف، وجعلني أفكر في الهروب ملايين المرات، لكن أختيّ، نور الله في الحياة، زوجتهما من تاجر بغال، وشيخ في الأزهر، يا أمي، الحياة بعدك بلون الفلفل الأسود ورائحتها رائحة شطة.

ما زلت أتذكر يوم وفاتك، وقف ملك الموت على باب غرفتي، نظر مباشرةً إلى وجهي، أراد أن يعتذر لي، أو أن يبادلني شعور الحزن، ماتت أمي، أقسم بالله، رأيتها بعدها تقف أمام غرفة أبي، تنصحه وتدلله قائلة: « أريد أن أجعل من الولد شيخًا يُعلم الأطفال كِتاب الله، لا بد أن تعتزل الخمر والميسر، فابنك سُكر لا يذوب إلا في الحلال، وابنتك تاج لا يلبسه لئيم.»

رأيتها تُجهز الفراش، تُبلل الجرجير والفجل، تستأذن ملك الموت كي تُجهز لنا آخر عشاء، لا تريد أن تلوث يد الفتاة بـ (المِشّ) ولا يد الأخرى باللبن، رأيتها أجمل من أي يوم، عباءتها نظيفة، وجهها باسم، ضحكتها رائقة، والله أنا لستُ مجنونًا، رأيت أمي تغسل الصحون، تبيع الفجل، تعد العشاء، والله رأيت ملك الموت يبكي وحين سألته قال: «يا سيدة الكُل، والله لقد فارقتِ الحياة.»

لترد بضحكةٍ تخفي بها دموعها قائلة:

- لم أمُت يا عزرائيل، أنا حية في قلوب أبنائي.

والله ثم والله، أمي لم تمُت، بل أنا!

((إيزابيل))

استيقظت فزعًا من أثر ضربةٍ آلمت كتفي اليسرى، كان ذو الوجه البارد ويليام.. لم تتحرك مُقلتاه من على نهديّ! قُمت بإعلاء قماش فستاني لأخفي ما برز مني، توجست أن يكون قد رأى ما حدث ليلة أمس وجاء حتى يقبض عليّ، أو ربما ليساومني.. استطردتُ بحيرةٍ وعدم فهمٍ قائلة:

- ماذا تريد؟!
- سأفتح عينيكِ عما هو خفي عنك، سأُريكِ حقيقة الأمور التي تجهلينها يا إيزابيل.
- ماذا تعني؟!
- يجب أن تأتي معي وسيتضح كل شيءٍ حينها.
- لا، لن آتي معك قبل أن تشرح لي ما تريد أن تصل إليه.
- ألا تريدين رؤيته؟
- من؟ آدم!
- بالطبع، ومن سواه؟! وآسف لخسارتك، لا بد أنكِ علمتِ بوفاته أيضًا أو بالأحرى قتله!

قالها بابتسامة مكر..

ابتلعت ريقي بصعوبة وسِرت معه بتجهم، هل أطلقوا سراح آدم بهذه البساطة بعد موت فيليب؟ هل بموته تنتهي كُل كوابيسي حقًا أم أنا على

موعد مع خزيٍ آخر يصيبني؟!

وقفت أمام بناية آدم مُحدقةً بها، ما هذه الرأفة؟! فور خروجه جعلوه يذهب إلى منزله!

هرولت إلى الدرج على عجل، اشتقت إليه وإلى رائحته التي لن تكون في أحسن حالاتها، شهر ونصف دون أن يزور الماء جسده وشعره، سكن جسدي اللهفة والحماس، سأستقبله بحضنٍ يدوم طويلًا.

الباب مفتوح على مصراعيه، وهذه ليست عادة آدم! لا يترك بابه هكذا، دلفت إلى الداخل بينما عيناي تبحثان عنه في شتى طرقات البيت، الصالة خاوية، آه كم اشتقت إلى أي شيءٍ يحمل عبيره! دخلت حجرته بابتسامة تعتلي شفتيّ التي سرعان ما تبخرت فور رؤيتي له..

شعرها الأسود يصل إلى منتصف ظهرها، بشرة ببياض الثلج وجسد منحوت بدقةٍ.. عارية تلتف حوله كأفعى تعصر فريستها ليعتصر معها قلبي ألمًا.. أشحت بوجهي عنه وسقطت دموعي بغتة، هرولت إلى الخارج ولم أسمع ما قاله ويليام في أذني، ففؤادي لن يحتمل المزيد..

ركبتُ الكارتة مُسرعة، عقلي يضجر ويضربني بقوة، تضربني الذكريات والمشاعر الصادقة التي صدرت مني إليه، ثقتي.. ظننت أنه مختلف، يبدو أنني لن أتخلص من فيليب أبدًا..

الرجال خائنون أم الخيانة تعني الرجال؟ ألف سؤالٍ وسؤال يداهم عقلي بلا توقف، لماذا أنا دومًا؟! لم يعد هناك نوع من أنواع الخداع إلا وقد زارني! كان يدير لي ظهره، لم أر وجهه المتواري، شعره كان أشعثًا، كم تمنيت صفعه ثم ضمه بالقوة نفسها!

أحببتك كثيرًا، لم ينفطر قلبي كهذا اليوم، كيف استطعت السماح لقلبك أن يحتضن فتاةً غيري؟! أنت لم تخني مرة واحدة بل آلاف المرات بكل ثغرة في جسدك وروحك، تركت جرحًا لن يداويه الزمن أو الناس،

لففت يدي حول بطني في رجفة، إنها كل ما تبقى لي، على الرغم من أنها تحمل دماءك نفسها، لعل ذلك سلاح ذو حدين، يطعنني تارة ويذكرني بخذلانك لي، ويروي عطش عشقي إليك تارةً أخرى.

أصوات ضجة الحوانيت تجلجل في أذني، المارة.. كلٌّ منهم في وادٍ، الجنود الفرنسيون يقفون كالأصنام، نظرات العامة الغاضبة، وأخرى قاهرة، يا مدينة القاهرة.. (القاهِرة) شعب لا يعرف لليأس طريقًا، أردت أن أضل طريقي وسط أزقة البلد، أهرب من حقيقة اليوم، ربما ما زلت ساكنة في مكاني على رصيف السيدة زينب، أيمكن أن يكون مجرد كابوس؟!

حين أمرني أبي بالتجسس على آدم وأخذ المعلومات منه، لم أظن أني سأقع في غرام عينيه ويصطادني قلبه.. أريد الاستيقاظ يا الله، ربما آدم من عبادك الصالحين وأبيت معاقبتي عما فعلته معه مُسبقًا، كفى يا الله، أيقظني رجاءً.. اصطدمت بأحد المارة، أحدث نفسي وخالقي، قادتني قدماي إلى آخر مكانٍ توقعت أن أقدم عليه..

مسجد السيدة زينب، رائحة المسك تقطنه، تسللت إلى رئتيّ وليس فقط إلى أنفي، وكأنها تداويني بلُطفٍ وحنانٍ كأمٍّ تربت على رضيعها الذي يبكي، شعرت براحةٍ كأنني بالجنة، جلست القرفصاء لا أفقه ما يدور حولي، فقط أعلم أنهم يصلون، أردت المشاركة ثم عدت أدراجي، فكيف لي ذلك؟ لا أعلم عن هذا الدين إلا القليل..

أتت سيدة بوشاح أبيض يغطي شعرها ليزيد قسمات وجهها الملائكي نورًا، أمسكت بذراعي وقالت:

- لماذا تبكين؟
- خانني بعد أن ظننته لا يخون، بعد أن عشقته حد الإدمان، حتى هو سبب وجودي هُنا.
- ربما يجب رؤية الأمور من جميع زواياها، فمثلًا أنا أراكِ تجلسين في

مسجد، وعلى رسغك صليب ولم أقل شيئًا!

صمت لبرهةٍ ثم قُلت:

- أسلمت على يده.

قاطعتني حينها قائلة:

- هيا لنصلي، ستغسل الصلاة قلبك وتنزع عنكِ آلامكِ.

اغتسلت بالماء بطقوسٍ لم أعهدها، ارتديت وشاحًا يغطي شعري، وقفت مستقيمة، قالت السيدة: «بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين.»

رددت وراءها.

جثوت على ركبتيّ راكعة، دعوت كثيرًا: «يا الله، قلبي لم يعد يحتمل، يتأوه يا الله، شرخ وتصدع بوجداني، يمنعني أن أغفو، يعذبني.. يقتلني، أحبه رغم أي شيءٍ وكل شيء، أنت زرعته داخلي، أثمر عشقه، أصبح غصنه غليظًا، لا يمكن إزالته إلا برحيلي، داويني يا الله، دلني يا الله، أصبحت قليلة الحيلة، منكسرة وحزينة، يملأني الشجن، ويتدفق لأوردتي الدمع بدلًا من الدم!

لم يكُن ويليام على عِلم بمكاني، فقد تلذذ بمراقبة رد فعلي عندما رأيت الرجل الوحيد الذي وهبته ثقتي يخذلني، لا أعتقد أنه اكتفى بما حدث، جالت بخاطري هذه الأفكار، أُعيدت أمامي المشاهد كما لو أنها مسرحية، أحضر عرضها الأول، شردت بينما كنت جالسة على سجادة بيت الله، سمعت صوت أقدامٍ، تدك الأرض دكًّا، يستحيل أن يكون صوت خطواتٍ نسائية!

اقترب الصوت أكثر حتى ظهر صاحبه، وقد استشاط غضبًا، تملأ وجهه علامات الحنق والغل، بحذائه وهيئته الصارمة، اقتحم المسجد وحُرمة المُصليات!

قبض على ذراعي وانتشلني منه مجرجرًا إياي للخارج دون التفوه بكلمة، حين تعالت أصوات النسوة ضاربين كفًّا بالآخر: «حسبنا الله ونعم الوكيل.. ينتقم

منكم الله يا كفار.»

قذفني داخل العربة بعنفٍ كمن يضرب ب (قُلة) عرض الحائط، فتسقط أجزاؤها متناثرة، قُمت بسبه ولعنه طوال الطريق، وبت أردد: «إلى أين تأخذني أيها الغبي؟!»

ظل صامتًا دون أن ينبس ببنت شفة.

الليل حالك، طريق متطرف لا أعرفه، رمال تحيط بي من يميني وشمالي، لم أرى شخصًا واحدًا يسير، لقد كان خاليًا من البشر ويملأه الضباب، استقرت العربة عِند بوابةٍ حديدية هائلة، يحرسها شاب مصري، لم أستطع تمييز ملامحه، فقد أخفاها المصباح المتجلي في يده،

رائحة عطنة تحيط بردهات المبنى المكون من طابقين، حاولت الإفلات لكنه وضع فوهة مسدسه في مؤخرة رأسي..

خشيت على طفلي، فقلبه يفتقر إلى الرأفة، ولن يكترث إذا خسرت ما أحمل في أحشائي، صعدت الدرج ثم قام بإدخالي لحجرةٍ كبيرة شاغرة، ليس بها سوى فراش نتن ومهترئ، ابتعد بضع خطواتٍ ثم استوقفته قائلة:

- خانتك عيناك يا ويليام فأنا لستُ والدتك، أليس هذا ما تمنيت القيام به معها؟!

التف بجسده الضخم في حركةٍ سريعة ململمًا شعره بأنامله ثم قال:

- على الأقل أنا لم أقتلها مثلما فعلتِ، لقد مات قلبكِ يا إيزابيل.

قهقهت حتى دوت ضحكاتي ثم قلت:

- لا تتحدث عن موت القلب، بت أشُك أنك تمتلك واحدًا.
- الأمر ممتع، هل أنا مُحق؟! استحق الموت على يد ابنته المسكينة التي لم يحبها يومًا.
- وأنا لم أُحبك قط.

● لا يعنيني، فقد مات أبوكِ، لا أُنكر أنني مفتون بجسدكِ الشاهق، ربما نقضي وقتًا ممتعًا هُنا، فكما ترين لا يوجد سوانا.

● حقير! كم أتمنى من الله أن يخسف بك الأرض، فأمثالك لا يستحقون العيش.

● الله! منذ متى تعرفين للتعبد طريقًا، أم أن دين الوشاح الأبيض والمساجد قد غيرك؟!

● ستحترق ولن تجد من يشفع لك بعد جريمة دخولك المسجد بالحذاء مُنتهكًا حرمة النساء.

● ولِمَ ما زلت أتنفس إلى الآن؟ لِمَ لا يُخلصك مني؟!

● سيخلصني، ماذا تريد؟!

● لا يعنيكِ.

صرخت في محاولةٍ لطلب المُساعدة، أمسكني بقوة، أخرج سكينًا حادًّا ووضعه على عنقي، هددني إذا بدرت مني حركات كهذه، سألقى حتفي وأتعفن هُنا، عايرني بما فعله آدم بي، وبكوني وحيدة، ساومني على بقائي معه وفعل ما يريد أو أن أنفذ أوامره دون إبداء أي اعتراض..

● كما ترين، أنا الرب هُنا، اخضعي أو تذوقي جحيمي على الأرض.

● الموت أشرف من خضوعي لك، حسبي الله ونعم الوكيل.

● أصبحتِ مصرية!

● لن يلطخ هذا البلد، دمك النجس.

● لينقذك الرب، مما هو قادم، يجب أن تصلي كثيرًا لتفلتي من بين يديّ.

ذهب وأغلق الباب، أجهشت بالبكاء، تملك اليأس أوصالي للحظات، دارت الغرفة بي كالساقية، صمتُّ ولم يفعل عقلي، لم أستمع لصوت أصفاد أو سلاسل

حديدية، تنغلق بإحكام في الباب حين خرج، تذكرت الفتى الذي وقف يحرس البوابة، ربما يساعدني، تضاربت أفكاري، ذلك الصبي هو قشتي التي سأتعلق بها لتُنجيني..

سمعت صوت احتكاك ورقةٍ بالأرض، وقفت وجلبتها مُزينة بالشمع الأحمر.. آدم!

((آدم))

صعدتُ إلى شقتي مرة أخرى، جهزتُ سلاحًا ناريًّا وسكينًا حاد النصل، غسل الماء جسدي من الدنس!
ارتديتُ قميصًا جديدًا، وبنطالًا جديدًا، وضعتُ على صدري قطعةً معدنية أحتمي بها لو ضرب عدوي نارًا، نزلت مرة أخرى.

صعدت إلى شقة أحمد صديقي الذي مات، قبلت يد أمه ورأس أبيه، وطلبت منهم الدعاء لي..

على الجهة الأخرى كان يستعد نابليون للرحيل، و(كليبر) يرأس الحملة في مصر، يقولون أن كليبر أفضل من نابليون.. أهناك فرق بين قاتلٍ ومُغتصب؟!
وقفتُ أمام بنايةٍ كبيرة رمادية اللون، عليها ثلاثة أعلام كبار يرفرفون في الهواء.. دخلتُ البناية مُتسللًا، لم يقابلني أي حارس، ومن قابلني سمح لي بالمرور كأني في بيتي الخاص.

وقفت أمام مكتبه، فتحت الباب ثم دخلت..

ويليام على مكتبه الكبير، قميصه مفتوح إلى نصف صدره، بيده زجاجة نبيذ كبيرة، بجواره مشجب مُعلق عليه سترته المليئة بالنياشين.

جلست أمامه مباشرةً، ترك الورقة والقلم جانبًا..

- ماذا تريد يا آدم؟
- الثأر.

ضحك وقال:

- وكيف تحققه؟

- بقتلك.

بسط جسده على الكرسي قائلًا:

- يا آدم.. نحنُ شريعتنا القتل؛ نحنُ سياسيون.
- لم أقتل بريئًا!
- إذًا لقد قتلت! أهناك فرق بين بريءٍ ومظلوم؟ لكنك كاذب، قتلت بريئًا، أو بالأحرى؛ ثلاثة!
- حوادث!
- ثلاثة حوادث! غير منطقي!

مددتُ يدي إلى زجاجة النبيذ، تجرعت منها القليل قائلًا:

- يضعون للقتلى نبيذًا جيدًا!
- بالضبط هو للقتلى.. لذلك مذاقه جيد بالنسبة لك.. ما رأيك يا آدم أن أعطيك قطعة من فرنسا؟
- أنت في أي جهة؟
- المال! المال والقوة يا أحمق.
- أنت فاجر.
- كنتُ أظنك أذكى.. كتبت لك معاهدة بيننا.

أخذت الورقة من يده قائلًا:

- تعين المصري..... في منصب (بكباشي) مرموق وترقيته، مني شخصيًّا ويليام أدوارد.
- لقد سرقت مصر يا ويليام!

- مصر بها مجوهرات كثيرة وآثار؛ أنا سمعت الله بنفسه يخبرني أن تلك الأشياء ملكي، أأعترض على صوت الرب؟
- لقد قتلت يا ويليام!
- أنت تعلم يا آدم أن من يعمل في السياسة يجب أن تلوث يده!
- لقد استخدمت طليقتي في السياسة.
- وما المانع؟ فيليب استغل ابنته!
- أنت ملعون.
- وهل تراني من أهل الجنة؟ أنا ملعون وأعلم هذا.. لكن لم أكن أعلم أن طليقتك معنا في الصراع!
- هل هذا عذر؟
- الأعذار للضعفاء، لكني قوي.. بالمناسبة؛ لو قتلتني.. إيزابيل ستُقتل في الحال!
- أنت في أي جهة؟
- لستُ في أي جهة! ملعون كل الجهات، المهم أنا!
- ألم تكن تحب إيزابيل؟!
- قبل وفاة فيليب).. بعد وفاته، لا.
- أنت حيوان!
- وهل أنت عصفور؟ كم رجلًا قتلت؟ كم غلامًا شردت؟ كم زوجةً كسرت قلبها؟ أنت مثلي؛ مُتشابهين تمامًا، في كُل شيء، نقتل من أجل السلطة، أنت قتلت من أجل مُراد، والسناري وأنا قتلت لأعيش، القتل كُتب علينا كالهواء، أنت زانٍ..

مثـلي، قاتـل.. مثـلي، مُسـتغل.. مثـلي! ثـم ترمينـي بتُهمـة القتـل والاغتصـاب!

- مـن بـاب الفضـول ليـس إلا.. لمَ سرقـت مـصر بـما أنـك قـادم لتحريرهـا؟ لقـد ضاجعـت سـيداتها، اغتصبـت أرضهـا، شربـت مـن دمائهـا! أنـت لا تختلـف عنهـم!
- مـا زلـت لم تفهـم يـا آدم.. أنـت صغـير بالنسـبة لي، مهـما حاولـت سـتظل صغـيرًا يـا ولـد؛ أتريـد إيزابيـل؟
- لا.. أصبحت من الماضي، والماضي لا يعنيني!
- بالنسبة لمستقبلك؟
- لا يعنينـي أيضًـا.. الرؤيـة مشوشـة بالنسـبة لي! الحيـاة ضبابيـة، نمـور يحـارب بعضهـا البعـض، ضفـادع تهـرب منهـم، حيتـان تبلـع الضفـادع، ضبـاع تقتـل النمـر!
- عمرك ضاع هباءً يا آدم!

أخرجتُ سلاحي الناري من جانبي، وضربت كتفه!

صرخ متألمًا..

- لن أقتلك بالنار يا ويليام.. موتك سيكون بالسكين.
- إيزابيل ستموت يا آدم!
- أنـت الصغـير يـا ويليـام!! أنـت الصغـير! إيزابيـل في مـكانٍ آخـر الآن، غـير الـذي قُمـت بحبسـها فيـه، بأمـرٍ منـي؛ مـصر بلـدي الأول يـا فاجـر، لا تظـن أنـك ذكـي، فأنـا حـيٌ أرزق!
- كيف؟

أخرجتُ السكين، أمسكت رقبته ثم همست في أذنه قائلًا:

- الرسائل اختراع عظيم، كُل ما رأيته خُدعة، أتمنى أن تنال إعجابك في جهنم.

فصلت رقبته عن جسده!

((إيزابيل))

«لم أخُنكِ يا بلهاء، أقسم لم ألمس من تِلك الفتاة شعرة، أحتاج مِنكِ المُغادرة في الحال، سيُساعدك (حسن) على الرحيل، أُحبكِ.»

انفرجت أساريري ولمعت عيناي، غمرتني سعادة لا توصف، احتضنت الورقة وعزف قلبي على شراييني نغمًا يُحرك ركودي ويمحو أحزاني بلُطف، لا تفشل سطورك أبدًا في التسلل إلى وجداني، أوقعت بي برسالةٍ كهذه، وها أنت توقع بي ثانيةً.

فتح حسن الباب، تمتم بعدة كلماتٍ ثم قال:

- شششش، لا تصدري صوتًا، سأخرجكِ من هُنا.

خرجت معه وعبرنا ممرات كُثر، وردهات طويلة ثم أبوابًا خشبية مُضيئًا الطريق بقنديله الصغير الذي يشبه الشمعة، كل ما فكرت فيه حينها آدم.. أود مراسلته والاطمئنان على حاله، ومعرفة ما حدث كي يتم وضعه في هذا المأزق!

أوصلني الفتى إلى ميناء كي أستقل سفينتي، سألته بلهفة:

- ماذا عن آدم؟ كيف سأتواصل معه؟

- لا أعلم، يجب أن تعتني بنفسك يا سيدتي.

اختفى هو الآخر بعدها، أتت نسمة باردة ارتجف منها جسدي، استقللت السفينة المُتجهة إلى الإسكندرية؛ وجهتي الأولى بمصر، من المُفترض أنه سيستقبلني أحد من طرف آدم عندما أصِل.

أستطيع أن أقسم بأن ويليام يزأر في هذه اللحظة بوجهٍ أشد حُمرة من

الفلفل، لقد نصرني إلهي يا أحمق!

معدتي تتضور جوعًا.. «نتضور جوعًا» إذا جاز التعبير، اشتهيت التهام دجاجة كاملة مع باقة من الخضروات الطازجة، أيضًا الحساء الفرنسي، كان الخادمان يصنعاه من أجلي بكل حُب، لم يُنجبا لكنهما أحباني بصدق، ولم يدم الأمر طويلًا، فقد غادرا بأمرٍ من فيليب حين اتهمتهما أمه بالسرقة، آه نسيت أن أخبركم أنني أكره جدتي أيضًا، ثرثارة حد الملل، تتدخل فيما لا يعنيها وتعشق إذلال من هم أقل منها، عسى أن يجمعكم جحيم واحد!

والد فيليب أي جدي، لم يحمل الدماء نفسها، كان بشوشًا طيبًا ولينًا، حنونًا ورزينًا، ذات مرة أخبرني حكمة لا تغادر ذاكرتي:

«كوني صماء عما يزعجك، وضريرة عما يؤلمك، لكن لا تكوني بكماء واقطعي لسان كل من تسول له نفسه التطاول عليكِ!»

ثانية ، أنا وأولى محطاتي الإسكندرية.. ودعت الميناء واستقللت كارتة كانت تنتظرني وبداخلها (محمد بك) معاون لـ السناري وأقل رُتبة من آدم.. ارتديت قُبعة بلون سنابلَ القمح لأحجب عني الشمس، رائحة البحر تلفح أنفي، ميزت حاسة الشم رائحة أسماك شهية، أصابت معدتي بهياج واضح، وقفت أمام أحد المطاعم ذات الطراز الشعبي الصميم، طلبتُ طبقًا ساخنًا يحتوي على ما لذ وطاب من الأسماك البحرية الطازجة، التهمته بنهمٍ حتى شبعت، تركت بعض العملات على الطاولة وغادرت.

فتاة بملاءة لف وبُرقع، أسفلها ثوب منقوش بثمار الرمان مثل شفتيها تمامًا، سار خلفها شاب متوسط الطول ذو بشرة خمرية وشارب خفيف، ظل يغازلها وتتغنج هي ثم التفتت إليه ونظرت باستحياءٍ قائلة: «أيووووه!»

أثارت إعجابي الفتاة برمتها، تغنت أذني بلكنتها في لفظ الحروف، ابتسمت وأكملت طريقي، مررت من حي ((Camp de cesar))

أو كما يلقبه المصريون (كامب شزار).. رأيت الكثير من الفرنسيين هناك، اكتظ المكان بالكثير من الشقراوات والعيون الفيروزية.

احترت بين الإقامة بمنزلٍ أو فندق، بنهاية الأمر اخترت الأقل منهما إزعاجًا وتطفلًا، ووافقني محمد بك.

«سأقطن بـ (اللوكاندة) نفسها يا آنستي، إن احتجتِ أي شيءٍ، فقط استدعيني.»

مبنى هائل كُتب أعلاه (لوكاندة إيبان).. ولجت من البوابة، كان في مقدمة ردهة الفندق تمثال ضخم على شكل خيلٍ عربيٍّ أصيل، سجاد طويل بلونٍ أحمر داكن، حجزت غرفتي ووضعتُ حقائبي، تغفو عيناي رغمًا عنها، ألقيت بجسدي على الفراش كجثةٍ هامدة وغُصت في نومٍ عميق..

يعتليني كأن سحابة حالكة قد حلت علي، تلتف يداه حول رقبتي ويغرزها لأسفل، يسيل لعابه ليدنو من وجنتي كجمرة من النار تحرقني وتسلخ جلدي كالمواشي، يسحب شهيقي وزفيري ببطءٍ واستمتاع، يخنقني حتى الموت! يصرخ قائلًا: «سأسلب منك طفلك.»

أفقد الوعي وترجع روحي إلى خالقها!

استيقظت من هذا الكابوس فزعة بينما صدري يعلو ويهبط بهلعٍ بالغ، لا أعلم هوية القاتل المجهول في حلمي! هدأت من روعي قليلًا، شربت ماءً ليروي جوفي اليابس، استحممتُ بعدها ثم قررت التجول في شوارع عروس البحر المصرية.

أخذت فستانًا من الخزانة تملأه الورود بألوانٍ خلابة فاتنة، الأحمر يعانق الأبيض والأخضر في تناغمٍ وانسجام على أرضيةٍ سوداء حريرية، عطري ونسماته العذبة الناعمة، جدائل رقيقة تُناسب خصلاتي، ودعت غرفتي لبضع ساعات وانصرفت.

أجوب شوارع (بحري).. الحوانيت والدكاكين مكتظة بالبضائع، الأقمشة الكتان والحرير تلتف حولها النسوة وتتسامر حول ما يناسب السمينة كي يبرز خِصرها، والنحيفة يشتعلوا مِنها غيرة، فيبدأوا وصلة نُصح واصفين إياها خلطات لزيادة الوزن كـــ (المفتقة)!

«أنتِ لازمِك شوية ربربة، متبقيش معضمة كدة.»

نعتتني سيدة، عرض ذراعٍ واحدٍ منها بمثابة عضلتي فخذيّ!

ابتسمت في خفوت وتابعت السير، لامست قدماي قطرات ماءٍ سكبها رجل يحمل دلوًا كبيرًا، تتساقط منه حتى تغرق الأرض وتتنفس بهواءٍ رطبٍ قائلًا:

«يا فتاح يا عليم، يا رزاق يا كريم.»

أشكال مُربعة صدفية بعدة انعكاسات وألوان بين البني والرمادي والأسود، والأبيض والأحمر، حدقت بها وكانت تُفصح عن لونٍ جديد مع اختلاف الإضاءة النهارية، تصميمٍ شرقي جليل، صُنعت للاحتفاظ بالمجوهرات الثمينة أو البسيطة على حدٍّ سواء، صاح بائعها بصوتٍ رنان:

«يا مين يشتريك يا صدف.»

أعتقد حين يأتي آدم سأبتاع واحدة جسيمة لتحتضن أي شيءٍ من رائحته أو الهدايا، سأحتفظ برسائله ومنديله الذي اختلسته منه عنوة، ومذكراتي وتدويناتي، وسردي معكم باستفاضة أيضًا.

الدكاكين تعتليها شقق لكن كيف يمكن للمرء أن يعيش بهذا الصخب؟! لا تفارق العامة الابتسامة، رغم الألم والعجز، القهر والذل، الفقر والإهانة، راضين غير مكترثين، تأتي الرياح ويقاوموها بضحكةٍ أو مُزحة خفيفة الظل، غير عابئين، والأغرب أنهم هم مَن ينتصر آخر المطاف! دون الخوض في معارك مدججة.

عجـوز جثـم عليهـا الشـقاء وصبغـت بشرتهـا الشـمس بلـونٍ خمـريٍّ وكفـين تجلـت تجاعيدهمـا، تحتضـن طفـلًا صغـيرًا باكيًـا، وأمامهـا باقـة مـن الـورود، عبـير زهورهـا خـلاب، مِلـت بجسـدي نحوهـا قائلـة:

- كم ثمنها؟
- «وهو الورد بيتباع للورد يا بنتي؟!»

قالتها حين غرست واحدة في شعري.

حينها ضربت بقدمها الصغيرة معدتي بدلال، شهقت مستطردة:

- لقد ركلتني طفلتك يا آدم!

((آدم))

قبل أسبوع من قتل ويليام أخبرتني إيزابيل أنها ذاهبة إلى فيليب بمكتبه، وقد يصل الأمر إلى القتل! حذرتها كثيرًا من هذا الفعل.. لكنها لم تستمع لي ثم علمت أنها قتلته، تأكدتُ أن (ويليام) يكيد لي مكيدة، وخصوصًا أني بين يديه، يوم قتل فيليب حين دخل علي ويليام عذبني وضربني.. ثم عقد معي الهدنة والاتفاق.. وافقت، أرسلت إلى إيزابيل كل التفاصيل، وأنه يجب حين تراني مع الفتاة أن تمثل الحزن والبكاء..

سمعتْ من الحارس أن ويليام أمره أن يحبسها في السرايا التي سكن فيها نابليون تحديدًا أسفل السرايا، رأيت الحارس الشخصي الذي يراقب إيزابيل يشبه حسن.. يعمل تحت إمرتي، تسلل حسن إلى السرايا، قتل الحارس وأخذ مكانه، إنها لحظة قتلي لـــ ويليام.. هربت إلى الإسكندرية، استقبلها أحبتي هناك.

وأنا جهزت ملابسي ورحلت إليها.. يومان يا إيزابيل ونبني حياة جديدة! حياة لا يوجد بها أبوكِ أو ويليام.. حياة بها ابنتي؛ منك!

وصلت الإسكندرية بقميصٍ أبيض ومعطف رمادي، يخرج منه ساعة جيب، اشتريتها من الخواجة (روميو) الإسباني المُحايد، كما ارتديت أيضًا بنطالًا أسودًا على حذاءٍ أسود، وقفت بجانب رجلٍ يجلس القرفصاء وبيده مطرقة، يدق مسمارًا وقطعة حديد ليصنع (حدوة) الأحصنة..

ركبت الكارتة المؤجرة سلفًا، السائق صديق قديم لي، قتل زوجته وهرب إلى الإسكندرية باسمٍ جديد وحياةٍ جديدة.

البلد هادئ، البحر يضرب الصخور بهدوء، الضوضاء الوحيدة في عقلي لكنه يكفي لإغراق العالم صراخًا، السيدات جميلات، العباءات مختلفة عن القاهرة، الكعوب تتبختر في مشيتها، الأجساد منحوتة، الرجال

شواربهم مستقيمة، أيديهم خشنة، البيوت صامتة، لا عسكر من الإنجليز أو الفرنسيين، المصريون يتجولون بحرية.

مررت على حارةٍ ضيقة، النسوة تغسل الملابس في إناءٍ كبير، يضحكن، مررت عليهن وقلت: «العواف عليكن.»

ضحكن ثم رددن السلام: «العوافي عليك يا أخويا.»

ليجيب رجل: «تعالى اشرب شاي.»

لوحت له بيدي، رائحة الصابون مع البامية تصنع مزيجًا مختلفًا من الروائح، رائحة الغسيل مع عرق كعوب السيدات يشعرك بالحياة أخيرًا؛ الحياة المتعددة التي عشتها أصابت قلبي بالعطن؛ خيانة، قتل، سرقة، هروب، حياة شاقة، رحمك الله يا أمي، رحمك الله يا أبي.

ما زلت في الحارة، البغلة تمر بها بهدوءٍ حتى لا يموت أحدهم تحت حافرها الكبير، البغلة مُزينة، تتدلل أثناء سيرها، تسمع غناءها أثناء سكونها.

رائحة الملوخية لعبت في أنفي، سمعت أنة خفيفة تخرج من الطابق الأول، رجل وامرأته سرقا دقيقتين من الزمن ليمارسا الحب، ليت الحب يدوم.

سكبت جارة إناء ماءٍ متسخ لينزل مباشرةً على (مكوجي).. الرجل يصرخ بها قائلًا:

- «عيب يا ام سيد.»
- «اعذرني يا اخويا.. مشفتكش.»
- «لا العذر دا مش كفاية، نزلي لي طبق كوسة ورز.»
- «من عيني يا اخويا.. يا واد يا سيد.. جهز طبق رز وكوسة لعمك.»

حيـاة رقيقـة، المصريـون يحـب بعضهـم البعـض، لا يريـدون الـشر، فقـط طبـق أرز أو قطعـة دجـاج أو لحـم مـع الطبـق ليزيـد الخـير والبركـة.

عـبرت أخـيرًا الكارتـة الحـارة، دخلـت في حـارة أوسـع، منهـا لأوسـع ثـم الشـارع الرئيـسي.

رائحـة البحـر داعبـت أنفـي، هـزت كيـاني، حريـة، رائحـة الحريـة، البحـر دائـمًا حريـة.. اختلطـت رائحـة البحـر برائحـةٍ عرفتهـا مـن بعيـد.

كانت إيزابيل واقفة أمام البحر، يلفح الهواء شعرها وجسدها.

اشتقت إليكِ.

ترجلت من الكارتة عشرين خطوة، أصبحت خلفها.

((إيزابيل))

حلقت كالطير الحُر بعدما شعرت بحركتها، لا أطيق الانتظار كي تقع عيناي عليكِ..

قادتني قدماي إلى القلعة (قلعة قايتباي) تلك التي شهدت ملاحِم عدة، احتضنها التاريخ بين ثاناياه، يُقال أنها كانت منارة وتم استبدالها بهذا الحِصن العظيم، شهدت العديد من الأحداث، مر عليها حُكام ومماليك كُثر، البحر على يسارها، تبطش وترتطم أمواجه بأسوارها التي تحيط بها، جلست على مقعدٍ رخامي عريض والهواء يتسلل إلى كل ثغرةٍ بي على حدة، ما ظهر مني وما بطن، رذاذ الأمواج يداعبني، التقطت شهيقًا طويلًا ثم زفرته ببطء..

ألقيت حياتي الماضية خلف ظهري بكل جوارحي، لا أبتغي تذكر الماضي بكل ما يحمله من ثقلٍ وجسارة وغم وهم، سأطوي صفحاتي السابقة ليلتهمها النسيان، ليجرفها الزمن ويحيلها إلى رماد.. أود أن أولد من جديد وأحيا بذاتي الحقيقية التي لطالما بقيت دفينة داخلي.

قاطعت شرودي امرأة تبدو في هيئتها كالغجر، أساور تجلجل، برقع وملاءة، عينان واسعتان بنيتان، كشفت عن وجهها لتتجلى بشرة سمراء جذابة تتناغم مع شعرها الأسود المتعرج المنسدل، تمسك بيدها عدة قواقع بحرية، جلست بجواري قائلة:

- أأقرأ لك (الودع)؟
- لا أفهم، ماذا تعني؟
- أخبرك بالمكتوب.

- وهل تستطيعين فعلها؟

- جربي.

قبضت بكفيها بضع قواقع ثم حركتهم مرة واثنتين وثلاثة، بعدها رمقتني بنظراتٍ طالت ثم قالت:

- «جلبك مستني اللقا، ولقاكم قرب، خدي بالك من ضناكي لأن الموج لما بيضرب ما بيفرقش.»

ورحلت! كلامها غامض، يحمل أكثر من معنى، لا أمتلك لأحدهم تفسيرًا..

انتابتني الدهشة حين احتوى ذراعاه خصري بعد مغادرة تِلك العرافة!

- اشتقت إليكِ.

التفت إليه بشوقٍ كبير بلغ عنان السماء، غمرته بقوةٍ كأنني أحتمي به، لمست يدي رقبته، والأخرى خصلات شعره، عناق بات قلبي يبتغيه وروحي تشتهيه، مثل الذي يرى قلبه يخفق أمام عينيه، حل العيد بقدومه وبعث القدر لي برقية مفادها تعويض عن كل فقد وحزن ودمع.

- حبيبي، اشتقت إليك كاشتياق الزرع إلى الماء.

أخـذت ذراعيـه ولففتهـما حـول بطنـي التـي لم تـبرز كثـيرًا أو يظهـر عليهـا علامـات الحمـل الفاضحـة، اقتربـت مـن أذنيـه وبـدلالٍ يفقهـه هـو، قلـت:

- أحمل مزيج عشقنا هُنا، هنا تمامًا.
- أعلم.. أعلم أنك حامل مني، بنت.. أريد أن تُشبهكِ.
- تعلم! ممن؟! وكيف أخبرك؟
- صاحب المقامات العُليا عند الله أخبرني.
- أود إخبارك أنني قد زُرت المسجد وأديت أولى صلواتي هُناك.
- أسلمتِ؟
- أصبـت، وعـن اقتنـاعٍ تـام ظهـر جليًّـا، دعـوت ربي كثـيرًا أن يجمعنـي بـك مجـددًا.
- يجب أن نتزوج يا إيزابيل حتى لا ينعت أحد ابنتنا بسوء.
- هل حقًّا تطلب الزواج بي يا آدم؟
- للمـرة الثانيـة أطلبـه منـكِ، لكنـكِ.. لكنـكِ.. لم تخبرينـي حقًّـا، مـاذا حـدث مـع فيليـب؟
- أيعقـل أن تطلـب يـدي للـزواج ثـم تذكـر بعدهـا مبـاشرةً فيليـب؟! عـلى أي حـال، لم أسـتطع تمالـك نفـسي.. كان بـاردًا كالثلـج، لا يكـترث لشـأني حتـى أنـه أراد إتمـام زواجـي بـــ ويليـام.. بمناسـبة هـذا الكائـن الفـظ، مـاذا فعلـت معـه؟
- إيزابيل! هل فعلًا قتلتِ فيليب؟

انسحبت من بين أحضانه ببطءٍ، وأشحت بوجهي نحو البحر قائلة:

- تقصد لطخت يدي بدمائه.. أطلقت رصاصة ورأيت انهيار شلال دمه ثم رحلت.

سألتُ مندهشًا:

- كيف علم ويليام بقتلك له؟!
- لا أدري! ربما كان ويليام الظل الذي ظهر في ردهة المكتب بينما كنت أغادر.

لففتُ يدي حولها وقُلت:

- لا يعنيني.. ويليام أيضًا قد مات.

عانقت ذراعيه قائلة:

- ولماذا قتلته؟
- ساومني وهددني بكِ، مظلوم.. لا يعرف آدم حق المعرفة!

قتلته، كانت موته مُضحكًا، روحه خرجت كطيرٍ جريح، لم أقتله بالنار مثل فيليب بل بالسكين، نحرت عنقه، وتناثرت الدماء في المكتب..

- استحق موتة أبشع من هذه، عاش ومات فظ القلب والمشاعر
- هل سنصبح أبوين يسري القتل في أوردتهما؟!
- من يقتل ظالمًا، فهو بطل.
- هل يأتي يوم ويعاير ابنتنا الناس بنا؟
- لا؛ سنعيش هُنا، في الإسكندرية.
- سأفتخر بك حين ألفظ اسمك أمامها، سيتغنى لساني بسرد مغامراتنا.

- أحُبكِ أكثر من العالم، يا أم ابنتي.
- أنا أيضًا (بحبك).. أليس هكذا تنطقونها؟
- تخرج منك جديدة!
- أتعدني بالبقاء؟
- حتى يفرق الموت بيننا.
- لا، لا تمُت، أكره الموت، فهو لص ماكر، يسرق دون إنذار.
- الموت هو السرقة الوحيدة المشروعة في الحياة؛ أما باقي السرقات مكروهة، حين تسرقين تنهبين حق آخر في الحياة.
- مشروع لكنه مؤلم لمن يحيا على ذكرى رحيل شخصٍ آخر.

مَددتُ يدي حتى لامست يدها ثم قلت:

- سأظل بجوارك.

وضعت يدي في جيب البنطال، وأخرجت خاتمًا ذهبيًّا عليه تاج؛ صُنع لها..

تساقطت دموعي من المفاجأة ثم جففتها مستطردة:

- إذًا ستستحوذ علي داخل تِلك الدائرة الذهبية؟
- من قال أني أريد الاستحواذ عليكِ، أريدك ملكة في حياتي.
- وأنا أريد لحياتي أن تسكُنها.

أثناء حديثنا، وقفت كارتة خلفنا، طلت منها سيدة بملامح رقيقة؛ أنف صغير، شعر أسود ناعم، هدوء في ملامحها.

قائلة:

- اركبي يا عروس، لقد صممت لكِ فُستانًا.

نظرت إليه مُتعجبة دون أن أفهم شيئًا ثم قلت:

- أي فُستانٍ يا آدم؟! هل أنت على استعدادٍ لاستقبال عروس للمرة الثانية؟
- أنتِ المرة الأولى لي في كل شيء.

ضممته بوهنٍ وعينين دامعتين قائلة:

- وأنت كُل شيء.

((آدم))

انتفض قلبي فرحًا مما حدث، الحياة ابتسمت لي ابتسامة رضا وحب.

عوضني الله عن كل ما فاتني، الآن أنا وُلدتُ على يدها، الآن أنا حي بها.. بها الحياة سهلة عن كل ما مضى، زوجتي فرنسية؟ من كان يصدق ذلك يا ابن الفلاح؟! من يصدق ذلك أيها الهارب من سوط أبيك؟! من كان يتوقع أن تشاركك الفراش فتاة إفرنجية؟ تتحدث بلسانٍ أعوج، تسير رأسها في السماء، لا ترتدي (برقع أو زنوبة).. لا تشرب من (القُلة)! لا تأكل (المِشّ).. لا تسكت على الفراش بل تصرخ، تزيدك شبقًا، فتزيدها دلالًا.

عُمر فات وآخر قادم، عُمر مات وآخر يولد.

تزوجتها على سنة الله ورسوله وكتابه، سأعلمها القرآن والصلاة والأعياد..

أسير معها دربًا جديدًا، درب الهوى الرباني، درب السعادة الربانية.

لا خمر ولا ميسر ولا زنا ولا سياسة! فالسلطة والحكم، قتل للرحمة والمروءة، قتل للحياء والإنسانية والحب، فلا ترى إلا ما يريده الحاكم..

كذبتي الأولى عليها؛ حقيقة.. دُكان صغير أبيع فيه الملابس الرجالية، هُنا في الإسكندرية، بلد البحر، بلد السمك.

معي ما يكفي من المال لبناء حانوت واثنين وثلاثة لكن الرزق يحب الاستمرارية والاستقرار.

لا أعلم كم أبلغ من العمر! كل ما أعلمه، أني ولدت من جديد على يديها.

في البداية تبادلنا الكذبات ثم تبادلنا الحقيقة الوحيدة الموجودة؛ الحُب.

في البداية جمعتنا المصالح السياسية ثم أصبحنا كالروح والقلب..

زوجتي الحبيبة، أما بعد:

أحبُكِ أكثر مما يحب الشجر الهواء.

((إيزابيل))

تـلألأ بريـق عينيـه واتسـعت حدقتـاه حـين أيقـن مـا نحـن عـلى موعـدٍ للقائـه، جنـين يحمـل خليـط دمائنـا وطباعنـا، نصفـه مـصري قمحـي، والنصـف الآخـر فرنـسي، برهـان لوعـة عشـقنا وبـذرة حيـاتي الجديـدة كُليًّـا مـع آدم في بـلاده التـي درسـتها في فرنسـا منـذ نعومـة أظافـري لكـن لم يتحـرك شـغفي تجاههـا ولـو لبرهـة، عـلى عكـس باقـي أصدقائـي بالصـف الذيـن انبهـروا كثـيرًا وتعمقـوا في دراسـة أي تحديثـات تتعلـق بوصـف مـصر والفراعنـة.

بعـد مـا مـررت بـه في شـوارعها، تعرفـت عليهـا وأُغرمـت برجـل مـن أهلهـا الجذابـين، عينـاه كعينـي الصقـر، وشـموخه كشـموخ أسـدٍ لاً يهـاب بـل يُهـاب؛ بالـكاد تغـيرت فكـرتي عنهـا بعـد أن داسـت أقدامـي ترابهـا، سـأعيش فيهـا وسـترعرع طفلتـي هُنـا، سـأقص عليهـا رحلتـي، وكيـف غـيرني أبوهـا بنظـرة! أضـاء جانبـي المُظلـم الدامـس، تشـاركنا الألم حتـى تـرك ندوبًـا لا تُمحـى بالمـكان أو الزمـان.. لكنـي عـلى ثقـةٍ بقدرتـه عـلى محـو لحظـاتي التعيسـة ليسـتبدلها بسـعادةٍ غامـرة وابتهـاج، فبمجـرد دخولـه حيـاتي بـدل مقاييـسي ورؤيتـي لـكل مـا يحيـط بي، بـل بدلنـي أنـا كُليًّـا! بـت أنـا طفلتـه المُدللـة العاشـقة لبشرتـه الخمريـة، أغـار وهـذا ليـس بطبعـي! فقـد اختلـف كُل شيءٍ منـذ أن اقتحـم حيـاتي، ممُتنـة للصدفـة وللحـروب والصراعـات وأنانيـة الحُـكام لأنهـم كانـوا سـبب احتلالـك فـؤادي للأبـد..

تبسـمي يـا أيـام عُمـري، فالقـادم أفضـل وأجمـل، اسـتبشري فقـد تذوقـت مـن الألم مـا يكفـي لملء نهـر، حـان وقـت فيضـاني.. أود عنـاق طفلتـي لتكـبر ونكـبر معهـا، نهـرم أنـا وآدم حتـى نمـوت ويظـل حُبنـا حيًّـا.

أحبـك حتـى تتـلاشي حـروفي وتتبعثـر كلـماتي ويتعثـر لسـاني عـن لفظهـا، فتنطـق بهـا دقـات قلبـي، فقـط ابـق ليرحل جميـع البـشر وتظـل أنـتَ، إذا أردت

كسري فاكسر ضلوعي من شدة العناق، أمتني فيك لأحيا، ستمتلك طفلتين؛ أكبرهما أنا التي لا تفقه سير دروب المتبقي من عُمرها بدونك، أدامك الله لي يا رزقي الحلو من الدنيا.

نعم لقد تزوجنا!

فعلناها بعد مشقةٍ وعانينا قسوة الحرمان وهول الفقد..

يحيط ببنصري الآن خاتم زفافنا الذي سبق وتقدم لي به، ها أنا ذا أودع حياتي العزباء بكل إعزازٍ وتقدير، فمن تُصبح حرم آدم يعلو شأنها، سأكون له فقط، لا مزيد من التسكع في الحانات وتجربة أذواق مختلفة من الرجال في طيات الليل، لا مزيد من الوحدة وشعور الغربة وسط الزحام، فهو قد بات الوطن..

سأختبئ بين ذراعيه حين أرتعب، سيكون هو الخمر الذي يُسكر حواسي، جديدي مع كُل غروب شمسٍ وإشراقة كل صباح، تغريدة كُل عصفور، وغناء كُل كروان عذب.

سعادة بحجم السماء شاسعة، هكذا تضاربت مشاعري عندما وقفت بعقلٍ شارد أمام فُستانٍ أبيض ساحر، أصر آدم أن أرتديه حتى بعد أن صرتُ حاملًا!

تصميمه بسيط، فهو مصنوع من الحرير الخالص، لا نقوش أو زخرفات، في بداية الأمر لم أكن على درايةٍ أن المصريين يفضلون في حضارتهم اللون الأبيض للزفاف، لم أعتد ذلك في فرنسا، فيمكن للعروس ارتداء أي لونٍ تريد.. لكني أحببته بالفعل! أظن أنه مُلائم لكل من تبغي طلة ملائكية جذابة تخطف الأنظار في مثل هذا اليوم.

عاهدت نفسي وبت أحدثها ألا يتلاشى شغفُنا، أظلله برموش عينيّ، أخبئه من غدر البشر وطعنات الخذلان، أكون أمًّا تتوجس ضياع طفلها بين غيوم السحب، ديني الجديد حثني على اللين والعطاء دون انتظار

مُقابل! تبدل قلبي المُستهلك بقلب غلامٍ حديث الولادة.

وضعت أحمر شفاهٍ ورديٍّ هادئ، وهندمت خصلات شعري التي عقصتها لنفسي كالأميرات.. حذاءٌ لؤلؤي مرتفع، أصبحت جاهزة بأنامل مُرتعشة!

ألحان البيانو تتسلل مُدغدغة إياي وعازفها يرمقني بذهولٍ كأنني حاكمة بلاده! أخطو ببطءٍ مُحدثة طقطقة طفيفة على الأرض، شموع متناثرة في أرجاء المكان المُتسع والمكشوف، القمر بدر، فقد حضر دون دعوةٍ سابقة، يلازمنا كالظل، وقف آدم بسترةٍ سوداء متوسطة الطول، هيئة رجلٍ يتزوج للمرة الأولى..

انحنى مقبلًا يدي بحنان، حدق بي بشدة، أظن أنه بتلك النظرات المقتضبة والدقيقة، قد اطلع على سروالي الداخلي المخبأ أسفل ثوبي الأبيض!

أحاط خصري بكفيه وابتسم بمكر، عيناه تخبراني بالنصر! لقد فُزت بكِ.

«أخبرتكِ أن الحب يصنع المعجزات، وها أنتِ قد أصبحتِ زوجتي.»

قلت بعناد:

- يمكنني الخلاص حينما أريد.. لكني أحببتك فأصبحت ملاذي.

تألم فكي هذه الليلة لعدم مفارقة البسمة وجهي، أردت نشر خبر عقد قراننا لكل نجمة على حدة لعلهن يخبرن باقي نجوم المجرات المجاورة ليزداد الاحتفال بأضواءٍ ساطعة، تلفت نظر المارة، فيصيح القمر: «تزوجت إيزابيل!»

عسى أن لا تُمحى هذه اللحظات من ذاكرتي..

ولجت منزلي الجديد بالإسكندرية، أثاثه يتسم بالرقي كما أحب، يتكون من غرفتين وصالة كبيرة، وشرفة أكبر مُطلة على البحر، يلفحها الهواء.

ارتميت على الفراش مُتعبة مُعلنة لجسدي انتهاء صلاحيته لهذا اليوم.

أغمضت عينيّ محاولةً النوم لكن سمعت صوت أقدام تزحف من الصالة إلى الغرفة، بالكاد آدم فهو يستحم منذ أتينا.. لكنّ لماذا سيطر علي الخوف؟!

هناك غصة هبطت لصدري بغتة، حتى ظهرت ملامح الشخص الذي افتعل الضجة ليضج عقلي بالتساؤلات وينخلع قلبي مخترقًا عظام قفصي الصدري من الذهول والرعب..

نعم.. كان هو من يقف أمام فراشي ببشرةٍ متسخة يحدق بي بعيني شيطان، ينتظر قبض روحي أنا وطفلتي..

عجز لساني عن النطق كما عجز جسدي عن الحركة، مُرتعبة وتزلزل دقات فؤادي الغرفة..

- لحسن حظي أنكِ أخفقتِ في الإصابة، ولسوء حظكِ قد نجوت!

نطقت باسمه..

- فيليب!

حدقت في اللا شيء كمن يُطعن بسكينٍ دون أن يكترث..

ضج رأسي بأفكارٍ كادت تفتك بعقلي، كيف وأنا من شهد سيلان دمائه؟! فاحت رائحتها بأنفي لأيامٍ وطاردتني الكوابيس عدة ليالٍ، عاد مجددًا عودة لا تسُر..

هل حقًّا أخفقتِ في الإصابة أم غُصتِ في النوم وما يجري الآن ليس بحقيقي؟! كابوس أريد الاستيقاظ منه، يؤرقني ويحبس أنفاسي، أتململ على الفراش كي أصحو أم أنني أعي ما يدور حولي ومطلعة على مُر الواقع؟!

ضاقت عيناه ورمقني شزرًا، ملامحه سوداء، لم يتفوه بحرفٍ بعد لكني استطعت قراءة عينيه، بل كدت أبلل سروالي خوفًا على طفلتي..

يقترب خطوة، فأبتعد عشرة حتى التصق ظهري بالحائط، باتت الحجرة الشاسعة أشبه بزقاقٍ شديد الضيق والصغر، لا مفر.. وضعت راحة يدي على فمي، تسارعت نبضاتي، انهمر دمعي ليحرق وجنتيّ، ضاق صدري، انسحبت كُل عوامل الهواء الفيزيائية، أنفاسي أسرع من شلال نهرٍ يجري دون توقف، عم الصمت حتى تكلم هو.

- أخشى أن يكون موتكِ من أثر خوفك المفضوح أمامي.
- ماذا تريد مني؟! دعني وشأني رجاءً، لا تؤذيني.
- أؤذيكِ؟! لقد حاولتِ قتلي!
- لقد أجبرتني على ذلك، لم تترك لي خيارًا آخر، كنت دومًا صارمًا معي، تأمر وتنهي لأرضى أنا بما تريده وحدك! أأخبرك سرًّا؟ أحببتك رغم كل شيء، عاطفتي تجاهك كوالدي، فشلت في تجاوزها على الرغم من أنك المتسبب في فقداني لكل ما أُحب.. حين أطلقت عليك النار، بكيت ليس على حالي فقط، بل لخسارتك.. أردت عناقك ولو لمرة واحدة، أردت أن تستفيق وتخبرني بأنك قد غفرت لي، ربما تندم ويرق قلبك، كنتُ لأغفر حينها.

ارتفع نحيبي وازدادت أوجاعي، صارحته بما خشيت مصارحة نفسي به، تبدلت نظراته الحادة بأخرى لينة، خمد جسده المنتفخ ثم عانقني!

- أنا أيضًا أحببتك، بكِ بعض صفاتي ومظهري، لم يستطع عقلي استيعاب وجود ابنة، تجري دمائي في عروقها.
- ما رأيك أن نبدأ صفحة جديدة يا أبي؟
- أوافقكِ.. لكن بدونه وكل ما يخصه.

صدرت مني آه رج صداها هدوء المكان، ركل بطني بقدمه بعنفٍ أدى إلى نزيفٍ بلل جزئي السفلي، ظهر آدم وألقى نظرة على حالي ثم صاح قائلًا:

- لا تخافي، ستكونين بخير!

نمت على السرير من شدة آلامي، لم تستطع ساقاي حملي، أرتجف.. ارتعدت أوصالي، جف حلقي، يتصبب مني العرق كالمطر، اصطكت أسناني، وذاب قلبي حين جذب كرسيًّا خشبيًّا ليجلس بهدوءٍ بالغ موجهًا مسدسه نحوي..

أصبحت فوهة البارود بين يديه.. الفَرد نفسه طراز سيمون بوليفار.. أراد أن يهلكنا ببارودة، أصابته الحيرة بمن سيبدأ أولًا! مشادة كلامية بينه وبين آدم.. نبرته لا توحي بالنجاة، حبيبي يقف كشجرةٍ وحيدة وسط الرمال، لا تعلم متى يأذن الله لها بارتواء أغصانها! تخشى الدقائق والساعات خوفًا من الموت ظمأً! أطلق النيران دون لحظة تفكير، عم الصمت واخترق البارود الجسد..

إضاءة بيضاء، لا أدري أين أنا! نعم.. نعم أنا برفقة أمي!

تضمني بقوة، تشتد أكثر كلما زاد النور، نورها كان أشد توهجًا، رأيتني معها في سن العاشرة، تجدل لي شعري وتتفحصني بعنايةٍ قائلة:

- ستكونين دومًا على ما يرام يا فراشتي.

تبتسم وتبكي.. تشعرني بالحنان، تصمت، تكبح ضعفها، تستمد من جسدي الخائر دوافع استمرارها..

- كم طفلًا تتمنين يا إيزابيل؟
- أربعة أطفال.
- ولِمَ؟

- كي لا تصيبهم الوحدة.

ستصبحين أمًّا عظيمة.

- مِثلكِ؟!

بل أكثر وأجمل، ستموتين سعيدة ولن يعتصر إعصار الحزن قلبكِ.

- وأنتِ؟! لا بد أن تبقين معي.
- سأقطن هُنا.

أشارت إلى قلبي ثم أكملت قائلة:

- سأشتاق إلى رائحتكِ.
- ليت الموت يموت، ولا يموت من تسكن أرواحهم أوصالنا!

لويس يمد لي يده قائلًا:

- اشتقتُ إليكِ.
- أين أنا؟! هل فارقت الحياة؟!
- أتتذكرين البحيرة التي اعتدت المكوث معكِ أمامها؟ هُناك أجمل منها.. هيا، الوقت ليس في صالحنا!

آدم من خلفي يسحبني دون أن ينطق.. لويس لا يكُف دمعه عن الهطول، يجرجرني حتى محت ملابسي التراب المنثور.. مهلًا هذا فيليب! ارتعدت فرائصي، حاولت الإفلات، لا جدوى، أي ذكرى؟ نعم يوم موت أمي قبل دقائق من ذهابها، حذرتني منه قائلة:

- الثعلب ماكر، وهو أكثر مكرًا وخبثًا.

قبلة وضمة أخيرة، فراق طال، واشتياق يصدع الصدور، صوت البارود

يـكاد يصـم أذنيّ، ليـت أنفـاسي تنتهـي.. مُتعبـة، جسـدي هزيـل، أدفـع ضريبـة دفاعـي عـن حريتـي، ربـما أنالهـا عندمـا تتحـرر روحـي مـن هـذا الجسـد!

((آدم))

خرجتُ من الحمام مُرتديًا عباءة منزلية.. إيزابيل على السرير، وجهها شاحب، جسدها يرتجف كطفلٍ صغير تاه من أمه.. فيليب يستند على يد كُرسيٍّ خشبيٍّ، بيده مُسدس صغير يلعب بدرج رصاصاته، أنا أعزل، لا سلاح معي أو بجانبي حتى.. فيليب يبتسم كبطلٍ حقق إنجازًا يُذكر..

- ظننت أنك فارقت الحياة؟
- أنا بالفعل كذلك! ابنتي حاولت قتلي يا آدم!
- وجئت لتقتلها؟
- لا أو نعم؛ لا أعلم! من الجيد أنك قتلت ويليام.. مشاكله كثيرة؛ وتلك الحسنة الوحيدة من ضربك لي يا (أيزو).. ظن أني مت، فهدد آدم.
- أرأيت ما يحدث لمن يُهددني؟!
- لا تقلق يا زوج ابنتي الوحيدة؛ لن أقتلك.. أصبحتُ وحيدًا، رحل نابليون وكليبر.. الفرنسيون يعدون عدتهم للرحيل، استمتعنا في مصر كثيرًا يا ولد.
- لِمَ أنت هُنا؟
- الوداع.. جئت كي أبارك لكما الزيجة ثم أرحل.
- والمسدس الذي بيدك؟
- هدية! هل تتذكرينه يا (إيزو)؟ ضربتني به.
- أريد منك الآن الرحيل بهدوء يا فيليب.. دون مشاكل.

- ها! أنا الآن صانع المشكلات؟!

وضع فوهة المسدس أمام وجهي قائلًا:

- لو خرجت منه رصاصة ستخترق عظام وجنتك لتمر منها وتخترق الباب.. ستضطر إيزابيل لتغيير الباب!

ابتسمتُ قائلًا:

- الباب فقط؟
- وزوج!

حوّل اتجاه سلاحه لها قائلًا:

- لو ضربتك رصاصة ستخترق بطنكِ المنتفخ وتهشم رأس جنينك ولن تخرج، وآدم سيغير الملاءة فقط!

أخرج فيليب الساعة من جيب سترته، الساعة الآن بتوقيت مصر ٩:٤٨ مساءً..

- كل ما يعنيني الدقائق التالية!
- ماذا بهم؟
- أقرر من سأقتل منكما!
- بكل سهولة؟
- أسهل من خروج الرصاصة من كتفي!
- وكيف تقرر؟
- أسمعتُ أطفالًا حفاة عراة يتحدثون عن لُعبة (حادي بادي)؟! نعم نعم! أنتم يا مصريون.. لكم تقاليد غريبة! حادي بادي ..

سيدي محمد البغدادي .. شالوا وحطو كله على دي.

وخرجت رصاصة من سلاحه!

لحظات تلو الأخرى، لا أعلم الرصاصة لمن! ولم أر إيزابيل تسقط، هل سقطتُ؟ لا أتذكر!

الهواء ساخن، امتلأ المكان برائحة البارود والخوف والصمت، والأعين المُغلقة.. الهدوء والرعب والسكينة..

حاولت تذكر أي كلماتٍ أصرخ بها.

الأرض، السماء، الله، الموت، الناس، الحياة، جبريل، عزرائيل، فرنسا، مصر، شبق، خندق، نار، سلاح، السناري، مُراد، زينة، عائشة، الساقي، الحياكة، ليلة القدر، التواشيح، قرآن، صلاة، سجدة، ركعة، سكين.

مشاهد متفرقة تجمعت أمام عينيّ ثم قلت:

- أقسم بالله بريء.. أخرجت سيفي الكبير، قطعت رأسه.. أقسم بالله ابني بريء.

أخرجت سلاحي الناري، ضربته في منتصف رأسه.

- لا يا آدم بيه، ابني مسرقش، لا يا آدم بيه، لا.

صمت.
جثة..
عائشة خائنة.. السناري حارب.. مُراد هارب، المماليك، العثمانيون، السياسة نجسة.. فيليب نجس، قتل ابنتي!

كليبر.. سليمان الحلبي، (مُحمد كُريم) مات!
ثلاثة بيوت شردوا بسببي، أبي يضربني، أمي تبكي، أبي يصرخ قائلًا:

- لن تصبح رجلًا.

- قتلت أربعة لأكون رجلًا!

أمي تضمد جراحي، تحفظ معي سورة الكافرون.. تدندن معي سورة (الفلق، الناس، البقرة، آل عمران، طه).. وما تلك بيمينك يا موسى؟

هارون أخي.. اشدد به أزري!

رزق الله موسى بهارون ولم يرزقني بهاروني!

صمت.. صمت.. صمت.

هل الله يسمع؟

هل الأمطار بكاء؟

من يبكي؟ من يسمع؟

من يعشق؟ من يفارق؟

صمت صمت صمت

كلمات أتذكرها، أريد كلمات أرددها!!

صمت، صمت، صمت

أصرخ يا آدم.. لا.

انظر! لا.

شاهد الدماء.. لا.

هذا ما صنعته يداك!
هذا ما جنيته على نفسك!

لا
لا

اصمت!
من يتحدث؟ لا أحد

من يصرخ؟ لا أحد

من يحيا؟ لا أحد

آه ثم آه ثم مليون آه

هل تحول كفاح الشعب إلى آه؟

هل لاعب البوكر تحول إلى لاعب كرة شراب؟

كُتّابْ الشيخ.. حفظ آيات الله!

من الله؟

لا أعلم!

- أمي.. من الله؟
- هو خالق الحياة يا آدومة!
- هل الرجال جميعهم مثل أبي؟!
- لا.
- متى يموت؟
- تأدب يا آدم؟
- آه ثم آه ثم مليون آه.

السماء تُمطر، الأرض تنشق، البيوت تقع، فرنسا تآكلت، بيوت الدعارة أُغلقت، الحمامات اتسخت، الحزن يغلف القلوب، وأي قلوب؟!

آه ثم آه ثم مليون آه.

((إيزابيل))

فتحت عينيّ على بقة حمراء تحوي دماءً طازجة، تترقرق أكثر فأكثر، فتفوح في أنفي ويعم الدم أرضية منزلي، يقف بجسده النحيل حليق الرأس، بيدين ترتعشان ووجهٍ مرتبك مذعور، ألقى مسدسه أرضًا، لا تزال رائحة البارود تنبعث منه، عازف البيانو!.. تعثر لسانه عن الكلام، رمقني بأسفٍ وبادلته النظر بفخر!

ترددت أكثر من مرة قبل أن أُطلق النار، لكن إن لم أفعل لكنتما مكانه، أعتذر منكما.

أنتَ أنقذت حياتي وحياة زوجي!

هذه المرة الإصابة في الرأس يا فيليب.. لا عودة، ولا أود مقابلتك حين أموت، في النهاية أنت على مِلة وأنا على مِلةٍ أخرى، أنا من طينٍ وأنت من نار، طريقان لن يتلاقيا، وهذا من حسن حظي وثقتي بربي، انتهت المعيشة الضنك، أردت دفنك بنفسي لكني قد لوثت يدي بدمائك مسبقًا، والغبي من يكرر الخطأ مرتين، آمل أن يؤنس وحدتك في الجحيم أحد الرجال الذين عاشرتهم!

أين تودين دفنه؟

في أعمق وأضيق بقاع الأرض.

طويت هذه الصفحة السوداء للأبد، لو كنت أمتلك شيئًا يمحو ذلك الجزء من ذاكرتي لفعلت واستبدلته بأي شيءٍ حتى إن كانت ذكرى لسلحفاة تتناول العشب، على الأقل هي لا تخون ولا تطعن من الخلف!

بيت جديد في الإسكندرية، شاسع وشاهق، متعدد الغرف والردهات، يتكون من طابقين وسلاملك.. أنزلق من عليه بعد كُل استحمام!

أحاط بذراعيه خِصري ليمنعني من السقوط أرضًا كما اعتاد..

مهلًا ستنزلق قدمك ونفقد الجنين!

أسعد برؤية الخوف علي في عينيك، هل رأيت (حياة)؟

لا تخافي.. حياة اليوم تتم الثامنة، لذا لن تسقط من على الدرج مثل أمها.

ابتسمت بسعادة، فهو دومًا يسخر مني.. لكني أحبه مهما فعل.

صنعت لابنتي الكعك بنفسي وزينتها بثماني شموع، تمنيت أن يعطيني ويعطيها الله العُمر الطويل كي أزينها بثمانين شمعة، ابنة محاربة تشبثت بالحياة من أجلي، شجاعة ولا تهاب شيئًا تمامًا مثل أبيها، أسميتُها حياة لأنها وُلدت من رحم الألم.. ليولد معها الأمل الذي يُبقيني حية..

أمنية واحدة فقط لا أكثر.

أتمنى بقاءكما معي للأبد.

احتضناهـا سـويًّا بحنـان، ضمتنـا بتشـبث، تبادلنـا أنـا وآدم النظـرات، نعـم فعلناهـا، تسـكن السـعادة قلوبنـا! وتسـكن أنـت الوريـد، حضنـي هـو حضنـك.. لتشـيخ الأجسـاد ويحيـا الهـوى، فأنـت الهـواء والشـفاء، الـداء والـدواء، البـاء التـي تسـبقها حـاء.. ليفنـى عُمـري معـك حتـى تحـترق النجـوم..

تمت بحمد الله.